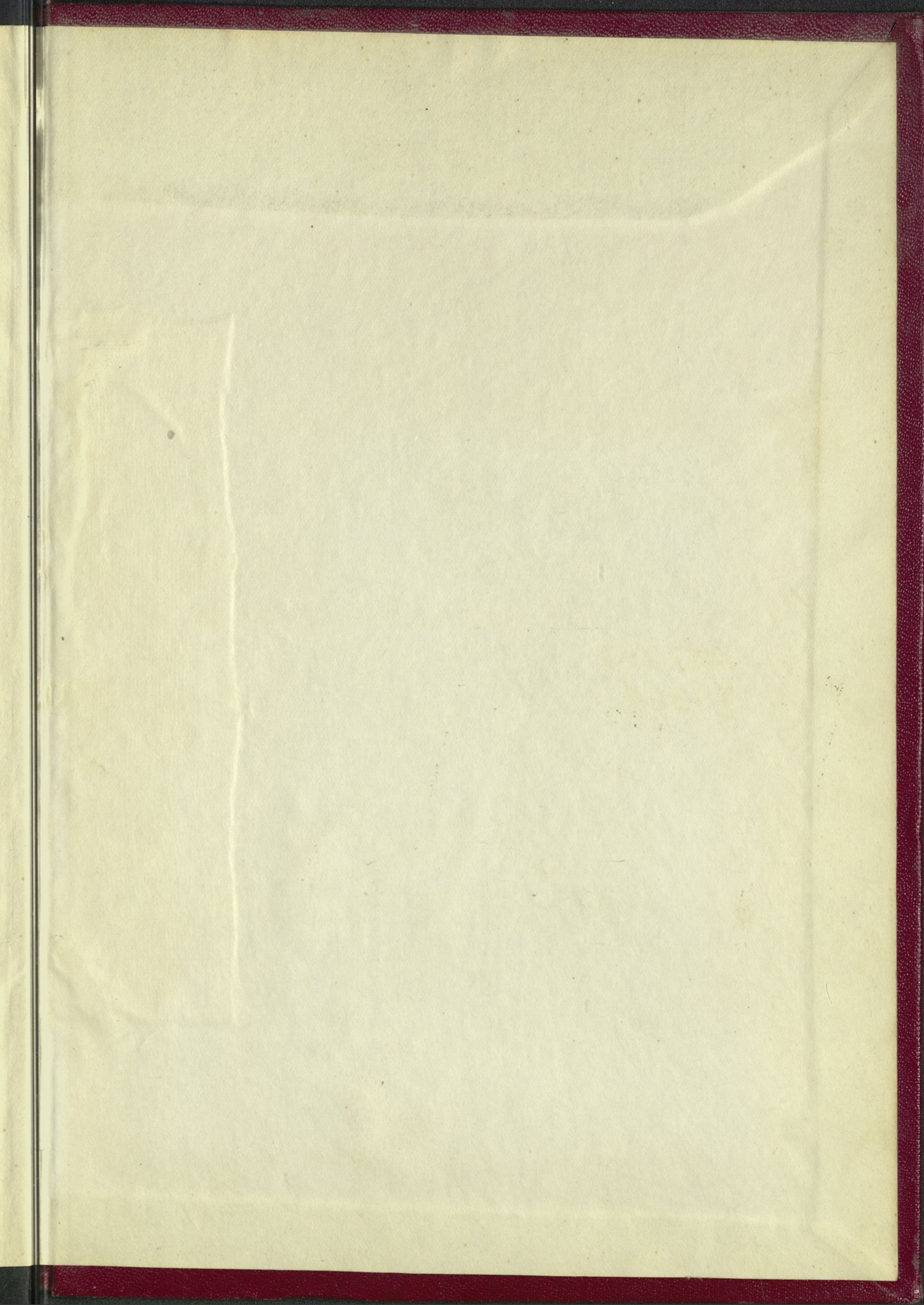
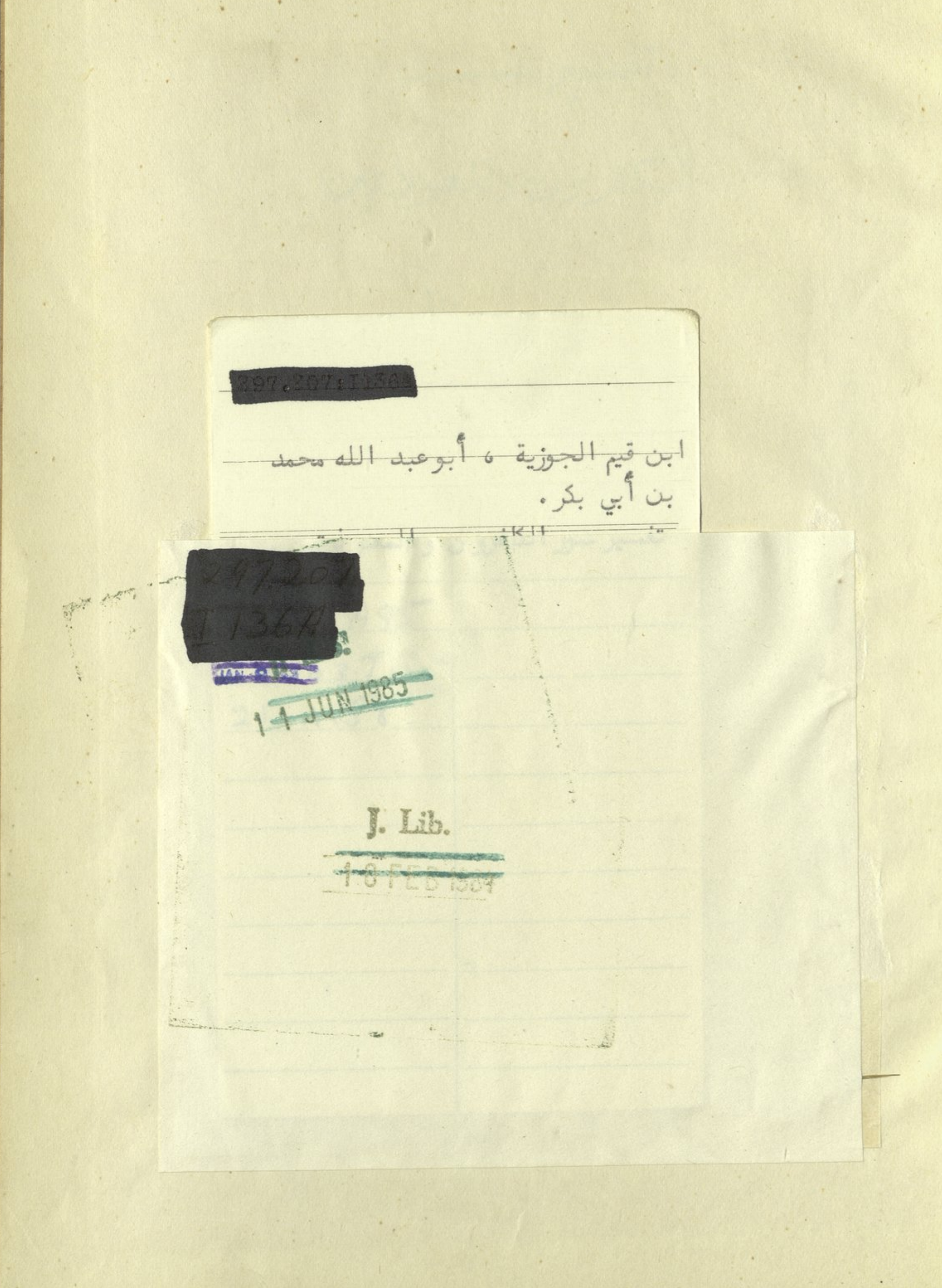
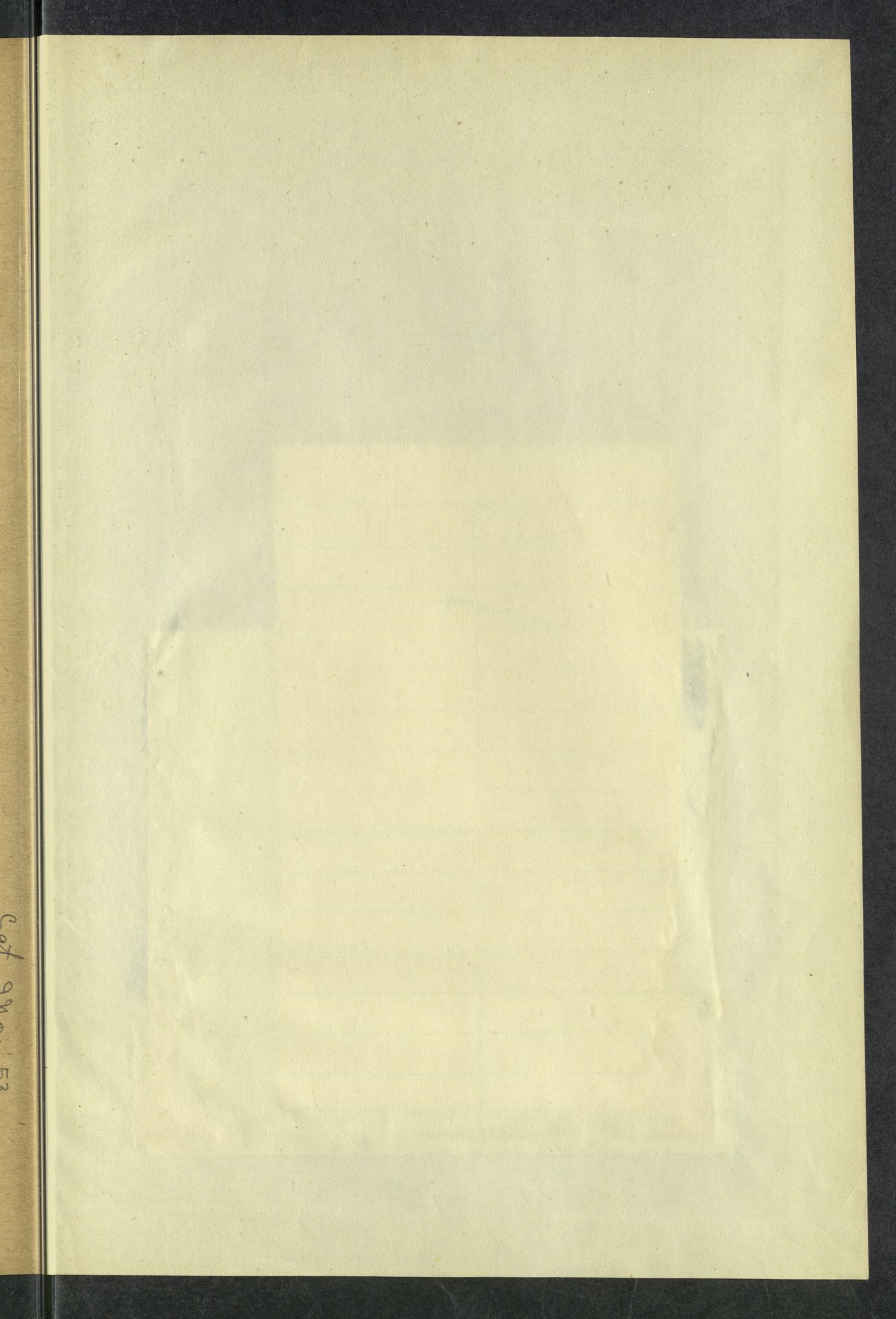
ابن القيم

تفسير سور الكافرون والمعوذتين







تفسير سور

الكافرون والمعوذتين

للإمام ابن القيم

٦٩١ - ٧٥١ هـ

رحمه الله وغفر لنا وله

بتحقيق وتعليق

محمد حامد الفقي

رئيس جماعة أنصار السنة المحمدية

مطبعة السنة المحمدية
٥ شارع غيط النوبى
ت ٧٩٠١٧

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين . الرحمن الرحيم . مالك يوم الدين . والعاقبة للمتقين . ولا عدوان إلا على الظالمين . وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لاشريك له ، كما شهد سبحانه لنفسه . أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولو العلم قائماً بالقسط . لا إله إلا هو العزيز الحكيم . أرسل رسله بالبينات والهدى . وأنزل معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط . وأنزل الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس . وليعلم الله من ينصره ورسله بالغيب إن الله قوي عزيز .

وأشهد أن محمدا عبده ورسوله ، وصفيه وخليله وخيرته من خلقه ، وأمينه على وحيه، والسفير بينه و بين عباده . أرسله بالحق بشيرا ونذيرا بين يدى الساعة . وأيده بالآيات البينات . والمعجزات الواضحات . وأنزل عليه كتابا مباركا ليدّبروا آياته وليتذكر أولوا الألباب (لقد من الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولا من أنفسهم يتلو عليهم آياته ، ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة ، وإن كانوا من قبل لفى ضلال مبين) (لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم . فإن تولوا فقل حسبى الله لا إله إلا هو عليه توكلت وهو رب العرش العظيم) . (يا أيها الناس قد جاءتكم موعظة من ربكم وشفاء لما فى الصدور ، وهدى ورحمة للمؤمنين . قل بفضل الله وبرحمته ، فبذلك فليفرحوا هو خير مما يجمعون) .

صلى الله وسلم وبارك على هذا النبى الكريم، والرسول الخاتم الأمين ، الذى أكمل الله على قلبه ولسانه للناس الدين ، وأتم عليهم النعمة ورضى لهم الإسلام ديناً

وبعد : فهذا تفسير الإمام العلامة المحقق ابن قيم الجوزية رحمه الله ورضى عنه لثلاث سور من كتاب الله تعالى ، هى من أمهات الكتاب الحكيم .

قد جمع الله فيها لعباده ما لو فهمه المؤمن وتعقله حق تعقله لفتح الله له بذلك أوسع باب إلى صراطه المستقيم . تلك هي سورة «الكافرون» وسورة المعوذتين .

ولست بحاجة إلى أن أثنى لك على الإمام ابن القيم ، ولا أزيدك معرفة بفطنته وذكائه ، وفقهه وصدقه، واجتهاده فى تحرى الحق والصواب فى كل مايحاوله ولا أشرح لك مقدار إيمانه بالقرآن : أنه الهدى والنور ، والعلم والحكمة ، والغذاء والشفاء ، وأن العافية كل العافية ، والسعادة كل السعادة فى الدنيا والآخرة للأفراد والأسر والجماعات ، والحكومات — إنما هى فى هذا الكتاب المبين ، ومن أرادها من غيره . فقد ضل ضلالا بعيداً .

كل ذلك أنت — ولا بد — تعرفه من الإمام ابن القيم — رحمنا الله وإياه — فأنا الآن أقدم لك تفسيره لهذه السور الثلاث باقة كريمة ، وهدية ثمينة ، راجياً من ربى أن يجعلنى وإياك من الذين يتلون الكتاب حق تلاوته . ويؤمنون به حق الايمان ، ويتحاكمون إليه وإلى هدى الرسول صلى الله عليه وسلم فى كل الشئون .

فخذها بيد الشكر والتقدير . وأقبل عليها بقوة وصدق عزيمة على الانتفاع . والله يهدينى وإياك سواء السبيل ، وصلى الله وسلم وبارك على عبده ورسوله محمد وعلى آله أجمعين م؟

القاهرة فى ٢٧ رجب سنة ١٣٦٨

٢٥ مايو سنة ١٩٤٩

محمد حامد الفقى

سورة الكافرون



قول الله تعالى ذكره :

(١٠٩ : ١–٦ قل : يا أيها الكافرون . لا أعبد ما تعبدون ، ولا أنتم عابدون ما أعبد . ولا أنا عابد ما عبدتم . ولا أنتم عابدون ما أعبد . لكم دينكم ولى دين)

« ما » على بابها لأنها واقعة على معبوده صلى الله عليه وسلم على الإطلاق ، لأن امتناعهم من عبادة الله ليس لذاته ، بل كانوا يظنون أنهم يعبدون الله ، ولكنهم كانوا جاهلين به . فقوله (ولا أنتم عابدون ما أعبد) أى لا أنتم تعبدون معبودى . ومعبوده هو كان صلى الله عليه وسلم عارفا به دونهم ، وهم جاهلون به . هذا جواب بعضهم .

وقال آخرون : إن « ما » هنا مصدرية . لا موصولة ، أى لا تعبدون عبادتى . ويلزم من تبرئتهم من عبادته تبرئتهم من المعبود ، لأن العبادة متعلقة به ، وليس هذا بشىء . إذ المقصود : براءته من معبوديهم ، وإعلامه أنهم بريئون من معبوده تعالى . فالمقصود المعبود لا العبادة .

وقيل : إنهم كانوا يقصدون مخالفته صلى الله عليه وسلم حسداً له ، وأنفة من اتباعه . فهم لا يعبدون معبوده لا كراهية لذات المعبود ، ولكن كراهية لاتباعه

صلى الله عليه وسلم ، وحرصاً على مخالفته فى العبادة . وعلى هذا لا يصح فى النظم البديع والمعنى الرفيع إلا لفظ « ما » لإبهامها ومطابقتها الغرض الذى تضمنته الآية

وقيل فى ذلك وجه رابع ، وهو : قصد ازدواج الكلام فى البلاغة والفصاحة مثل قوله (نسوا الله فنسيهم) و (من اعتدى عليكم فاعتدوا عليه) فكذلك (لا أعبد ما تعبدون) ومعبودهم لا يعقل . ثم ازدوج مع هذا الكلام قوله (ولا أنتم عابدون ما أعبد) فاستوى اللفظان ، و إن اختلف المعنيان ، ولهذا لا يجىء فى الأفراد مثل هذا ، بل لا يجىء إلا « من » كقوله (قل من يهديكم فى ظلمات البر والبحر ؟) (قل من يرزقكم ؟) (أمَّن يملك السمع والأبصار ؟) (أمَّن يهديكم فى ظلمات البر والبحر ؟) (أمن يجيب المضطر إذا دعاه ؟) (أمَّن يبدأ الخلق ؟) إلى أمثال ذلك .

وعندى فيه وجه خامس ، أقرب من هذا وهو : أن المقصود هنا ذكر المعبود الموصوف بكونه أهلا للعبادة مستحقاً لها ، فأتى بـ« ما » الدالة على هذا المعنى . كأنه قيل : ولا أنتم عابدون معبودى الموصوف بأنه المعبود الحق . ولو أتى بلفظة « من » لكانت إنما تدل على الذات فقط ، ويكون ذكر الصلة تعريفاً ، لا أنه هو جهة العبادة .

ففرق بين أن يكون كونه تعالى أهلا لأن يعبد ، و بين أن يكون تعريفا محضا أو وصفا مقتضيا لعبادته. فتأمله فإنه بديع جداً . وهذا معنى قوله النحاة: إن «ما» تأتى لصفات من يعلم .

ونظيره (فانكحوا ماطاب لكم من النساء) لما كان المراد الوصف ، وأن السبب الداعى إلى الأمر بالنكاح ، وقصده ـ وهو الطيب ـ فتنكح المرأة الموصوفة به : أتى بـ « ما » دون « من » ، وهذا باب لا ينخرم ، وهو من ألطف مسالك العربية .

و إذ قد أفضى الكلام بنا إلى هنا ، فلنذكر فائدة ثانية على ذلك ، وهى تكرير الأفعال فى هذه السورة .

ثم فائدة ثالثة ، وهى كونه كرر الفعل فى حق نفسه بلفظ المستقبل فى الموضعين ، وأتى فى حقهم بالماضى .

ثم فائدة رابعة ، وهى أنه جاء فى نفى عبادة معبودهم بلفظ الفعل المستقبل ، وجاء فى نفى عبادتهم معبوده باسم الفاعل .

ثم فائدة خامسة : وهى كون إيراده النفى هنا بـ « لا » دون « لن » .

ثم فائدة سادسة ، وهى : أن طريقة القرآن فى مثل هذا أن يقرن النفى بالإثبات فينفى عبادة ما سوى الله و يثبت عبادته ، وهذا هو حقيقة التوحيد . والنفى المحض ليس بتوحيد . وكذلك الإثبات بدون النفى . فلا يكون التوحيد إلا متضمناً للنفي والإثبات ، وهذا حقيقة « لا إله إلا الله » .

فلم جاءت هذه السورة بالنفى المحض ، وما سر ذلك ؟

وفائدة سابعة ، وهى : ما حكمة تقديم نفى عبادته عن معبودهم ثم نفى عبادتهم عن معبوده ؟

وفائدة ثامنة ، وهى : أن طريقة القرآن إذا خاطب الكفار أن يخاطبهم بالذين كفروا ، والذين هادوا ، كقوله (يا أيها الذين كفروا لا تعتذروا اليوم) (قل يا أيها الذين هادون إن زعمتم أنكم أولياء لله) ولم يجىء : (يا أيها الكافرون) إلا فى هذا الموضع ، فما وجه هذا الاختصاص ؟

وفائدة تاسعة ، وهى : أن فى قوله (لكم دينكم ولى دين) معنى زائد على النفي المتقدم ، فإنه يدل على اختصاص كل بدينه ومعبوده ، وقد فهم هذا من النفى فما أفاد التقسيم المذكور ؟

وفائدة عاشرة ، وهى : تقديم ذكرهم ومعبودهم فى هذا التقسيم والاختصاص ، وتقديم ذكر شأنه وفعله في أول السورة .

وفائدة حادية عشرة ، وهى : أن هذه السورة قد اشتملت على جنسين من الأخبار :

أحدهما : براءته من معبودهم ، و براءتهم من معبوده ، وهذا لازم أبداً .

الثانى : إخباره بأن له دينه ولهم دينهم .

فهل هذا متاركة وسكوت عنهم ، فيدخله النسخ بالسيف ، أو التخصيص ببعض الكفار ، أم الآية باقية على عمومها وحكمها ، غير منسوخة ولا مخصوصة ؟

فهذه عشر مسائل في هذه السورة . فقد ذكرنا منها مسألة واحدة ، وهى وقوع « ما » فيها بدل « من » .

فلنذكر المسائل التسع مستمدين من فضل الله ، مستعينين بحوله وقوته ، متبرئين إليه من الخطأ ، فما كان من صواب فمنه وحده لا شريك له ، وما كان من خطأ فمنا ومن الشيطان والله ورسوله بريئان منه .

فأما المسألة الثانيه ، وهى : فائدة تكرار الأفعال . فقيل فيها وجوه :

أحدها : أن قوله (لا أعبد ما تعبدون) نفى للحال والمستقبل ، وقوله (أنتم عابدون ما أعبد) مقابله ، أى لا تفعلون ذلك . وقوله(ولا أنا عابد ما عبدتم)أى لم يكن منى ذلك قط قبل نزول الوحى ، ولهذا أتى فى عبادتهم بلفظ الماضى فقال « ما عبدتم » فكأنه قال : لم أعبد قط ما عبدتم . وقوله (ولا أنتم عابدون ما أعبد) مقابله ، أى لم تعبدوا قط فى الماضى ما أعبده أنا دائماً .

وعلى هذا فلا تكرار أصلا . وقد استوفت الآيات أقسام النفى ماضياً وحالا ومستقبلا عن عبادته وعبادتهم بأوجز لفظ وأخصره وأبينه ، وهذا إن شاء الله

حسن ما قيل فيها . فلنقتصر عليه ولا نتعـداه إلى غيره . فإن الوجوه التى قيلت فى مواضعها ، فعليك بها .

وأما المسألة الثالثة ، وهى : تكرير الأفعال بلفظ المستقبل حين أخبر عن نفسه و بلفظ الماضى حين أخبر عنهم .

ففى ذلك سر ، وهو الإشارة والإيماء إلى عصمة الله لنبيه عن الزيغ والإنحراف عن عبادة معبوده، والاستبدال به غيره ، وأن معبوده الحق واحد فى الحال والمآل على الدوام ، لا يرضى به بدلا ، ولا يبغى عنه حولا ، بخلاف الـكافرين فإنهم يعبدون أهواءهم ، و يتبعون شهواتهم فى الدين وأغراضهم. فهم بصدد أن يعبدوا اليوم معبوداً ، وغداً غيره . فقال (لا أعبد ما تعبدون) يعنى الآن (ولا أنتم عابدون ما أعبد) أى الآن أيضاً . ثم قال (ولا أنا عابد ماعبدتم) يعنى ولا أنا فيما يستقبل يصدر مني عبادة لما عبدتم أيها الـكافرون ، وأشبهت « ما » هنا رائحة الشرط ، فلذلك وقع بعدها الفعل بلفظ الماضى ، وهو مستقبل فى المعنى ، كما يجىء ذلك بعد حرف الشرط ، كأنه يقول : مهما عبدتم من شىء فلا أعبده أنا .

فإن قيل : وكيف يكون فيها الشرط، وقد عمل فيها الفعل ، ولا جواب لها وهى موصولة. فما أبعد الشرط منها ؟

قلنا : لم نقل : إنها نفسها شرط ، ولـكن فيها رائحة منه ، وطرف من معناه لوقوعها على غير معين و إبهامها فى المعبودات وعمومها . وأنت إذا ذقت معنى هذا الـكلام وجدت معنى الشرط بادياً على صفحاته . فإذا قلت لرجل مّا ــ تخالفه فى كل مايفعل ــ : أنا لا أفعل ماتفعل . ألست ترى معنى الشرط قائماً فى كلامك وقصدك ، وأن روح هذا الـكلام : مهما فعلت من شىء فإنى لا أفعله ؟

وتأمل ذلك من مثل قوله تعالى (قالوا : كيف نكلم من كان فى المهد صبياً ؟) كيف تجد معنى الشرطية فيه ؟ حتى وقع الفعل بعد «من» بلفظ الماضى ، والمراد

به المستقبل ، وأن المعنى : من كان فى المهد صبياً كيف نكلمه ؟ وهذا هو المعنى الذى حام حوله من قال من المفسرين والمعربين : أن «كان» نبياً . بمعنى «يكون» لكنهم لم يأتوا إليه من بابه ، بل ألقوه عطلا من تقدير وتنزيل ، وعزب فهْم غيرهم عن هذا ، للطفه ودقته . فقالوا : «كان» زائدة .

والوجه ماأخبرتك به ، فخذه عفواً، لك غنمه ، وعلى سواك غرمه . هل على[1] «من» فى الآية قد عمل فيها الفعل وليس لها جواب ، ومعنى الشرطية قائم فيها فكذلك فى قوله (ولا أنا عابد ماعبدتم) وهذا كله مفهوم من كلام فحول النحاة كالزجاج وغيره .

فإذا ثبت هذا فقد صحت الحكمة التى من أجلها جاء الفعل بلفظ الماضى من قوله (ولا أنا عابد ماعبدتم) بخلاف قوله (ولا أنتم عابدون ما أعبد) لبعد «ما» فيها عن معنى الشرط ، تنبيها من الله على عصمة نبيه أن يكون له معبود سواه ، وأن يتنقل فى المعبودات تنقل الكافرين .

وأما المسألة الرابعة وهى : أنه لم يأت النفى فى حقهم إلا باسم الفاعل ، وفى جهته جاء بالفعل تارة ، وباسم الفاعل أخرى .

فذلك ـ والله أعلم ـ لحكمة بديعة وهى : أن المقصود الأعظم براءته من معبوديهم بكل وجه وفى كل وقت . فأتى أولا بصيغة الفعل الدالة على الحدوث والتجدد ، ثم أتى فى هذا النفى بعينه بصيغة اسم الفاعل فى الثانى : أن هذا ليس وصفى ولا شأنى ، فكأنه قال : عبادة غير الله لا تكون فعلا لى ولا وصفاً لى . فأتى بنفيين لمنفيين مقصودين بالنفى . وأما فى حقهم فإنما أتى بالاسم الدال على الوصف والثبوت دون الفعل . أى إن الوصف الثابت اللازم العائد لله منتف عنكم ، فليس هذا الوصف ثابتاً لكم ، وإنما ثبت لمن خص الله وحده بالعبادة ، ولم يشرك

---

(١) لعل «هل على» زائدة . والصواب «فان من» فتدبر

معه فيها أحداً ، وأنتم لما عبدتم غيره فلستم من عابديه . وإن عبدوه فى بعض الأحيان ، فإن المشرك يعبد الله ويعبد معه غيره ، كما قال أهل الكهف (وإذ اعتزلتموهم وما يعبدون إلا الله) أى اعتزلتم معبوديهم ، إلا الله ، فإنكم لم تعتزلوه . وكذا قال المشركون عن معبوديهم (مانعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى) فهم كانوا يعبدون معه غيره ، فلم ينف عنهم الفعل لوقوعه منهم ، ونفى الوصف لأن من عبد غير الله لم يكن ثابتاً على عبادة الله موصوفاً بها .

فتأمل هذه النكتة البديعة ، كيف تجد فى طيها أنه لايوصف بأنه عابد لله ، وأنه عبده المستقيم على عبادته : إلا من انقطع إليه بكليته ، وتبتل إليه تبتيلا ، لم يلتفت إلى غيره ، ولم يشرك به أحداً فى عبادته ، وأنه إن عبده وأشرك معه غيره ، فليس عابداً لله ، ولا عبداً له .

وهذا من أسرار هذه السورة العظيمة الجليلة ، التى هى إحدى سورتى الإخلاص ، التى تعدل ربع القرآن ، كما جاء فى بعض السنن . وهذا لايفهمه كل أحد ، ولا يدركه إلا من منحه الله فهماً من عنده . فله الحمد والمنة .

وأما المسألة الخامسة ، وهى : أن النفى فى هذه السورة أتى بأداة « لا » دون « لن » فلما تقدم تحقيقه عن قرب أن النفى « بلا » أبلغ منه « بلن » وأنها أدل على دوام النفى وطوله من « لن » وأنها للطول والمد الذى فى لفظها طال النفى بها واشتد ، وأن هذا ضد مافهمته الجهمية والمعتزلة من أن « لن » إنما تنفى المستقبل ولا تنفى الحال المستمر النفى فى الاستقبال ، وقد تقدم تقرير ذلك بما لا تكاد تجده فى غير هذا التعليق ، فالإتيان « بلا » متعين هنا . والله أعلم .

وأما المسألة السادسة ، وهى : اشتمال هذه السورة على النفى المحض ، فهذا هو خاصة هذه السورة العظيمة ، فإنها سورة البراءة من الشرك ، كما جاء فى وصفها : أنها براءة من الشرك . فمقصودها الأعظم : هو البراءة المطلوبة بين الموحدين والمشركين ، ولهذا أتى بالنفى فى الجانبين ، تحقيقاً للبراءة المطلوبة . وهذا مع أنها متضمنة للاثبات

صريحاً . فقوله (لا أعبد ماتعبدون) براءة محضة (ولا أنتم عابدون ما أعبد) إثبات أن له معبوداً يعبده وحده ، وأنتم بريئون من عبادته ، فتضمنت النفى والإثبات ، وطابقت قول ابراهيم إمام الحنفاء (٤٣ :٢٧ إننى بَراء مما تعبدون إلا الذى فطرنى) وطابقت قول الفئة الموحدة (١٨ : ١٦ وإذ اعتزلتموهم وما يعبدون إلا الله) فانتظمت حقيقة « لا إله إلا الله » ولهذا كان النبى صلى الله عليه وسلم يقرنها بسورة (قل هو الله أحد) فى سنة الفجر وسنة المغرب .

فإن هذين السورتين سورتا الإخلاص ، وقد اشتملتا على نوعى التوحيد الذى لانجاة للعبد ولا فلاح له إلا بهما ، وهما توحيد العلم والاعتقاد المتضمن تنزيه الله عما لايليق به من الشرك والكفر والولد والوالد ، وأنه إله (أحد صمد لم يلد) فيكون له فرع (ولم يولد) فيكون له أصل (ولم يكن له كفواً أحد) فيكون له نظير . ومع هذا فهو الصمد الذى اجتمعت له صفات الكمال كلها .

فتضمنت السورة إثبات ما يليق بجلاله من صفات الكمال ، ونفي مالا يليق به من الشريك أصلا وفرعاً ونظيراً . فهذا توحيد العلم والاعتقاد .

والثانى : توحيد القصد والإرادة وهو : ألا يعبد إلا إياه ، فلا يشرك به فى عبادته سواه ، بل يكون وحده هو المعبود .

وسورة (قل يا أيها الكافرون) مشتملة على هذا التوحيد .

فانتظمت السورتان نوعى التوحيد وأخلصتا له ، فكان صلى الله عليه وسلم يفتتح بهما النهار فى سنة الفجر ، ويختتمه بهما فى سنة المغرب . وفى السنن « أنه كان يوتر بهما » فيكونان خاتمة عمل الليل كما كانا خاتمة عمل النهار .

ومن هنا تخريج جواب المسألة السابعة . وهى : تقديم براءته من معبودهم ، ثم أتبعها ببراءتهم من معبوده فتأمله .

وأما المسأله الثامنة . وهى : إثباته هنا بلفظ (ياأيها الكافرون) دون يا أيها الذين كفروا فسره — والله أعلم — إرادة الدلالة على أن من كان الكفر

وصفاً ثابتاً له لازماً لا يفارقه ، فهو حقيق أن يتبرأ الله منه ، ويكون هو أيضاً بريئاً من الله ، فحقيق بالموحد البراءة منه ، فكان فى معرض البراءة التى هى غاية البعد والمجانبة بحقيقة حاله، التى هى غاية الكفر ، وهو الكفر الثابت اللازم ، فى غاية المناسبة ، فكأنه يقول : كما أن الكفر لازم لكم ثابت لا تنتقلون عنه فمجانبتكم والبراءة منكم ثابتة لى دائماً أبداً ،ولهذا أتى فيها بالنفى الدال على الاستمرار فى مقابلة الكفر الثابت المستمر . وهذا واضح .

وأما المسألة التاسعة . وهى : ماهى الفائدة فى قوله (لكم دينكم ولى دين) وهل أفاد هذا معنى زائداً على ماتقدم ؟ .

فيقال : فى ذلك من الحكمة – والله أعلم – أن النفى الأول أفاد البراءة وأنه لا يتصور منه ، ولا ينبغى له : أن يعبد معبوديهم ، وهم أيضاً لا يكونون عابدين لمعبوده ، وأفاد آخر السورة إثبات ماتضمنه النفى من جهتهم من الشرك والكفر الذى هو حظهم وقسمهم ونصيبهم ، فجرى ذلك مجرى من اقتسم هو وغيره أرضاً فقال له : لا تدخل فى حدى ، ولا أدخل فى حدك ، لك أرضك ، ولى أرضى ،

فتضمنت الآية أن هذه البراءة اقتضت أنا اقتسمنا خطتنا بيننا ، فأصابنا التوحيد والإيمان ، فهو نصيبنا وقسمنا الذى نختص به لا تشركونا فيه ، وأصابكم الشرك بالله والكفر به ، فهو نصيبكم وقسمكم الذى تختصون به لا نشرككم فيه ، فتبارك من أحيا قلوب من شاء من عباده بفهم كلامه .

وهذه المعانى ونحوها إذا تجلت للقلوب . رافلة فى حللها ، فإنها تسبى القلوب وتأخذ بمجامعها ، ومن لم يصادف من قلبه حياة فهى خود تُزَفُّ إلى ضرير مقعد ، فالحمد لله على مواهبه التى لا منتهى لها ، ونسأله إتمام نعمته .

وأما المسألة العاشرة . وهى : تقديم قسمهم ونصيبهم على قسمه و نصيبه ، وفى أول السورة قدم مايختص به على مايختص بهم .

فهذا من أسرار الكلام ، و بديع الخطاب الذى لا يدركه إلا فحول البلاغة

وفرسانها ، فإن السورة ما اقتضت البراءة واقتسام دينى التوحيد والشرك بينه وبينهم ، ورضى كل بقسمه ، وكان المحق هو صاحب القسمة ، وقد أبرز النصيبين وميَّز القسمين ، وعلم أنهم راضون بقسمهم الدون ، الذى لا أردأ منه ولا أدون ، وأنه هو قد استولى على القسم الأشرف والحظ الأعظم ، بمنزلة من اقتسم هو وغيره سماً وشفاء ، فرضى مقاسمه بالسم ، فإنه يقول له : لا تشاركنى فى قسمى ، ولا أشاركك فى قسمك ، لك قسمك ، ولى قسمى .

فتقدم ذكر قسمه هنا أحسن وأبلغ ، كأنه يقول : هذا هو قسمك الذى آثرته بالتقديم وزعمت أنه أشرف القسمين، وأحقهما بالتقديم ، فكان فى تقديم ذكر قسمه من التهكم بهم ، والنداء على سوء اختيارهم ، وقبح مارضوه لأنفسهم من الحسن والبيان ، ما لا يوجد فى ذكر تقديم قسم نفسه ، والحاكم فى هذا هو الذوق . والفَطِن يكتفى بأدنى إشارة، وأما غليظ الفهم فلا ينجع فيه كثرة البيان .

ووجه ثان . وهو : أن مقصود السورة براءته صلى الله عليه وسلم من دينهم ومعبودهم ، هذا هو لبها ومغزاها ، وجاء ذكر براءتهم من دينه ومعبوده بالقصد الثانى ، مكملا لبراءته ومحققاً لها ، فلما كان المقصود براءته من دينهم بدأ به فى أول السورة ، ثم جاء قوله (لكم دينكم) مطابقاً لهذا المعنى ، أى لا أشارككم فى دينكم ، ولا أوافقكم عليه ، بل هو دين باطل تختصون أنتم به ولا أشارككم فيه أبداً . فطابق آخر السورة أولها ، فتأمل .

وأما المسألة الحادية عشرة . وهى : أن هذا الإخبار بأن لهم دينهم وله دينه . هل هو إقرار ؟ فيكون منسوخاً ، أولا نسخ فى الآية ولا تخصيص ؟

فهذه مسألة شريفة من أهم المسائل المذكورة ، وقد غلط فى السورة خلائق وظنوها منسوخة بآية السيف ، لاعتقادهم أن هذه الآية اقتضت التقرير لهم على دينهم ، وظن آخرون أنها مخصوصة بمن يقرون على دينهم وهم أهل الكتاب ، وكلا القولين غلط محض ، فلا نسخ فى السورة ولا تخصيص ، بل هى محكمة ، وعمومها

نص محفوظ ، وهى من السور التى يستحيل دخول النسخ فى مضمونها ، فإن أحكام التوحيد الذى اتفقت عليه دعوة الرسل يستحيل دخول النسخ فيه ، وهذه السورة أخلصت التوحيد ، ولهذا تسمى سورة الإخلاص كما تقدم .

ومنشأ الغلط : ظنهم أن الآية اقتضت إقرارهم على دينهم ، ثم رأوا أن هذا الاقرار زال بالسيف ، فقالوا : هو منسوخ .

وقالت طائفة : زال عن بعض الكفار ، وهم من لا كتاب لهم . فقالوا : هذا مخصوص بأهل الكتاب .

ومعاذ الله أن تكون الآية اقتضت تقريراً لهم أو إقراراً على دينهم أبداً ، فلم يزل رسول الله صلى الله عليه وسلم من أول الأمر وأشده عليه وعلى أصحابه أشد فى الإنكار عليهم ، وعيب دينهم ، وتقبيحه والنهى عنه ، والتهديد والوعيد لهم كل وقت ، وفى كل ناد ، وقد سألوه أن يكف عن ذكر آلهتهم . وعيب دينهم ، ويتركونه وشأنه ، فأبى إلا مُضياً على الإنكار عليهم وعيب دينهم ، فكيف يقال : إن الآية اقتضت تقريره لهم ؟ معاذ الله من هذا الزعم الباطل ، إنما الآية اقتضت براءته المحضة كما تقدم ، وأن ما أنتم عليه من الدين لا نوافقكم عليه أبداً ، فإنه دين باطل ، فهو مختص بكم ، لا نشارككم فيه ، ولا أنتم تشاركوننا فى ديننا الحق . وهذا غاية البراءة والتنصل من موافقتهم فى دينهم ، فأين الإقرار ؟ حتى يدعو النسخ أو التخصيص ؟

أفترى إذا جوهدوا بالسيف كما جوهدوا بالحجة لا يصح أن يقال (لكم دينكم ولى دين) ؟ بل هذه آية قائمة محكمة ثابتة بين المؤمنين والكافرين إلى أن يطهر الله منهم عباده و بلاده .

وكذلك حكم هذه البراءة بين أتباع رسول الله صلى الله عليه وسلم أهل سنته و بين أهل البدع المخالفين لما جاء به، الداعين إلى غير سنته ، إذا قال لهم خلفاء الرسول وورثته : لكم دينكم ولنا ديننا . لا يقتضى هذا إقرارهم على بدعتهم ،

بل يقولون لهم هذا : براءة منهم ومن بدعتهم . وهم مع هذا منتصبون للرد عليهم وجهادهم بحسب الإمكان .

فهذا مافتح الله العظيم به من هذه الكلمات اليسيرة ، والنبذة المثيرة إلى عظمة هذه السورة ، وجلالتها ومقصودها ، و بديع نظمها من غير استعانة بتفسير ، ولا تتبع لهذه الكلمات من مظان توجد فيه ، بل هى استجلاء مما علمه الله وألهمه ، بفضله وكرمه ، والله يعلم أني لو وجدتها فى كتاب لأضفتها إلى قائلها ، و بالغت فى استحسانها . وعسى الله ، المانُّ بفضله الواسع العطاء الذى عطاؤه على غير قياس المخلوقين : أن يعين على تعليق تفسير على هذا النمط وهذا الأسلوب .

وقد كتبت على مواضع متفرقة من القرآن بحسب ما يسنح من هذا النمط وقت مقامى بمكة و بالبيت المقدس . والله المرجو إتمام نعمته [١] .

سورة الفلق

بسم الله الرحمن الرحيم

(قل أعوذ برب الفَلَق . من شر ماخلق . ومن شر غاسق إذا وَقَب . ومن شر النفّاثات فى العُقَد . ومن شر حاسد إذا حسد)

روى مسلم فى صحيحه من حديث قيس بن حازم عن عقبة بن عامر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ألم تَرَ [٢] آيات أنزلت الليلة لم ير مثلهن قط : أعوذ برب الفلق . أعوذ برب الناس » .

---

(١) بدائع الفوائد ج ١ ص ١٣٣ — ١٤٢

(٢) « تر » خطاب للمفرد ، من الرؤية ، مجزوما بلم . وقال النووى فى شرح مسلم ضبط « نر » بالنون المفتوحة . وبالياء المضمومة . وكلاهما صحيح .

وفى لفظ آخر من رواية محمد بن إبراهيم التيمى عن عقبة : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال له « ألا أخبرك بأفضل ماتعوَّذ به المتعوذون ؟ قلت : بلى . قال : قل أعوذ برب الفلق ، وقل أعوذ برب الناس » .

وفى الترمذى : حدثنا قتيبة أخبرنا ابن لهيعة عن يزيد بن أبى حبيب عن على بن رباح عن عقبة بن عامر قال « أمرنى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن أقرأ بالمعوذتين فى دُبُر كل صلاة » وقال : هذا حديث غريب .

وفى الترمذى والنسائى وسنن أبى داود . عن عبد الله بن حبيب قال « خرجنا فى ليلة مطر وظلمة ، نطلب النبى صلى الله عليه وسلم ليصلِّى لنا، فأدركناه ، فقال : قل . فلم أقل شيئاً . ثم قال:قل. فلم أقل شيئا . ثم قال : قل . قلت : يارسول الله، ماأقول ؟ قال : قل : قل هو الله أحد والمعوذتين ، حين تمسى وحين تصبح ، ثلاث مرات ، تكفيك من كل شىء » قال الترمذى : حديث حسن صحيح .

وفى الترمذى أيضاً : من حديث الجريرى عن أبى هريرة عن أبى سعيد قال « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يتعوذ من الجان وعين الإنسان ، حتى نزلت المعوذتان . فلما نزلتا أخذهما وترك ماسواهما » قال : وفى الباب عن أنس . وهذا حديث غريب .

وفى الصحيحين عن عائشة « أن النبى صلى الله عليه وسلم كان إذا أوى إلى فراشه نَفَث فى كفيه بقل هو الله أحد والمعوذتين جميعاً ، ثم يمسح بهما وجهه . وما بلغت يداه من جسده . قالت عائشة : فلما اشتكى كان يأمرنى أن أفعل ذلك به » .

قلت : هكذا رواه يونس عن الزهرى عن عروة عن عائشة . ذكره البخارى .

ورواه مالك عن الزهرى عن عروة عنها « أن النبى صلى الله عليه وسلم كان

إذا اشتكى يقرأ على نفسه بالمعوذات ، وينفث . فلما اشتد وجعه كنتُ أقرأ عليه ، وأمسح عليه بيـده ، رجاء بركتها » وكذلك قال معمر عن الزهرى عن عروة عنها « أن النبى صلى الله عليه وسلم كان ينفث على نفسه فى مرضه الذى قبض فيه بالمعوذات ، فلما ثَقُل كنتُ أنا أنفث عليه بهن وأمسح بيد نفسه لبركتها . فسألت ابن شهاب: كيف كان ينفث ؟ قال : ينفث على يديه ثم يمسح بهما وجهه » ذكره البخارى أيضاً .

وهذا هو الصواب : أن عائشة كانت تفعل ذلك . والنبى صلى الله عليه وسلم لم يأمرها ولم يمنعها من ذلك . وأما أن يكون استرقى وطلب منها أن ترقيه فلا [(١)] ولعل بعض الرواة رواه بالمعنى. فظن أنها لما فعلت ذلك وأقرها النبى صلى الله عليه وسلم : أنه كان يأمرها . وفرق بين الأمرين . ولا يلزم من كون النبى صلى الله عليه وسلم قد أقرها على رقيته أن يكون هو مسترقياً . فليس أحدهما بمعنى الآخر . ولعل الذى كان يأمرها به : إنما هو المسح على نفسه بيده . فيكون هو الراقى لنفسه ويده لما ضعفت عن التنقل على سائر بدنه أمرها أن تنقلها على بدنه . ويكون هذا غير قراءتها هي عليه ، ومسحها على بدنه . فكانت تفعل هذا وهذا . والذى أمرها به إنما هو نقل يده لا رقيته . والله أعلم .

والمقصود : الكلام على هاتين السورتين . و بيان عظيم منفعتهما ، وشدة الحاجة بل الضرورة إليهما . وأنه لا يستغنى عنهما أحد قط ، وأن لهما تأثيرا خاصاً فى دفع السحر والعين ، وسائر الشرور ، وأن حاجة العبد إلى الاستعاذة بهاتين السورتين أعظم من حاجته إلى النفس والطعام والشراب واللباس ، فنقول والله المستعان :

قد اشتملت السورتان على ثلاثة أصول . وهي أصول الاستعاذة.

---

(١) كيف ؟ والنبى صلى الله عيه وسلم سيد المتوكلين . وقال صلى الله عليه وسلم « يدخل الجنة من أمتى سبعون ألفاً بغير حساب، وهم الذين لا يرقون ولا يسترقون ولا يكوون ، ولا يكتوون ، وعلى ربهم يتوكلون » :

أحدها : نفس الاستعاذة .

والثانية : المستعاذ به .

والثالثة : المستعاذ منه .

فبمعرفة ذلك تعرف شدة الحاجة والضرورة إلى هاتين السورتين .

فنعقد لهما ثلاثة فصول : الفصل الأول : فى الاستعاذة . والثانى : فى المستعاذ به . والثالث فى المستعاذ منه .

الفصل الأول

اعلم أن لفظة « عاذ » وما تصرف منها تدل على التحرز والتحصن والنجاة . وحقيقة معناها : الهروب من شيء تخافه إلى من يعصمك منه . ولهذا يسمى المستعاذ به : مَعاذا ، كما يسمى : ملجأ ووزراً .

وفى الحديث « أن ابنة الجَوْن لما أُدخلت على النبى صلى الله عليه وسلم فوضع يده عليها ، قالت : أعوذ بالله منك . فقال لها . لقد عُذْتِ بمَعاذ ، الحقى بأهلك » .

فمعنى « أعوذ » ألتجىء وأعتصم ، وأتحرز .

وفى أصله قولان . أحدها : أنه مأخوذ من الستر .

والثانى : أنه مأخوذ من لزوم المجاورة .

فأما من قال : إنه من الستر فقال : العرب تقول للبيت الذى فى أصل الشجرة التى قد استتر بها « عُوَّذ » بضم العين وتشديد الواو وفتحها ، فكأنه لما عاذ بالشجرة واستتر بأصلها وظلها : سموه عُوَّذا . فكذلك العائذ قد استتر من عدوه بمن استعاذ به منه واستَجَنَّ به منه .

ومن قال : هو لزوم المجاورة قال : العرب تقول للحم إذا لصق بالعظم فلم

يتخلَّص منه « عُوَّذ » لأنه اعتصم به ، واستمسك به . فكذلك العائذ قد استمسك بالمستعاذ به ، واعتصم به ، ولزمه .

والقولان حق . والاستعاذة تنتظمهما معاً . فإن المستعيذ مستتر بمعاذه ، مستمسك به ، معتصم به . قد استمسك قلبه به ولزمه ، كما يلزم الولد أباه إذا أشهر عليه عدوه سيفاً وقصده به ، فهرب منه . فعرض له أبوه فى طريق هربه . فإنه يُلقى نفسه عليه ، ويستمسك به أعظم استمساك . فكذلك العائذ قد هرب من عدوه الذى يبغى هلاكه إلى ربه ومالكه ، وفر إليه ، وألقى نفسه بين يديه ، واعتصم به ، والتجأ إليه .

وبعد ، فمعنى الاستعاذة القائم بقلب المؤمن وراء هذه العبارات . وإنما هى تمثيل وإشارة وتفهيم ، وإلا فما يقوم بالقلب حينئذ من الالتجاء والاعتصام ، والانطراح بين يدى الرب ، والافتقار إليه ، والتذلل بين يديه : أمر لا تحيط به العبارة .

ونظير هذا : التعبير عن معنى محبته وخشيته ، وإجلاله ومهابته . فان العبارة تقصر عن وصف ذلك ، ولا تدرك إلا بالاتصاف بذلك ، لا بمجرد الوصف والخبر ، كما أنك إذا وصفت لذة الوقاع لعنِّين لم تُخلق له شهوة أصلا ، فمهما قربتها وشبهتها بما عساك أن تشبهها به ، لم تحصل حقيقة معرفتها فى قلبه . فإذا وصفتها لمن خلقت الشهوة فيه وركبت فيه عرفها بالوجود والذوق .

وأصل هذا الفعل : «أعْوُذ» بتسكين العين وضم الواو ، ثم أُعِلَّ بنقل حركة الواو إلى العين وتسكين الواو . فقالوا : أعوذ على أصل هذا الباب ، ثم طردوا إعلاله ، فقالوا فى اسم الفاعل : عائذ . وأصله : عاوذ . فوقعت الواو بعد ألف فاعل ، فقلبوها همزة ، كما قالوا : قائم ، وخائف . وقالوا فى المصدر : عياذاً بالله . وأصله : عِواذاً كَلِوذٍ ، فقلبوا الواو ياء لكسرة ما قبلها ، ولم تحصنها حركتها .

لأنها قد ضعفت بإعلالها فى الفعل . وقالوا : مستعيذ . وأصله : مستعوذ ، كمستخرج ، فنقلوا كسرة الواو إلى العين قبلها ، فلما كسرت العين قبلت قبلها لسرة ، فقلبت ياء على أصل الباب .

فان قلت: فلم دخلت السين والتاء فى الأمر من هذا الفعل ، كقوله (١٦: ٩٨ فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم) ولم تدخل فى الماضى والمضارع ، بل الأكثر أن يقال : أعوذ بالله ، وتعوّذت ، دون أستعيذ ، واستعذت ؟

قلت : السين والتاء دالة على الطلب، فقوله : أستعيذ بالله، أى أطلب العياذ به . كما إذا قلت : أستخير الله : أى أطلب خيرته ، وأستغفره. أى أطلب مغفرته . وأستقيله . أى أطلب إقالتـه . فدخلت فى الفعل إيذاناً بطلب هذا المعنى من المعاذ . فإذا قال المأمور : أعوذ بالله . فقد امتثل ما طلب منه . لأنه طلب منه الالتجاء والاعتصام . وفرق بين نفس الالتجاء والاعتصام ، و بين طلب ذلك . فلما كان المستعيذ هار باً ملتجئاً معتصما بالله، أتى بالفعل الدال على ذلك دون الفعل الدال على طلب ذلك فتأمله .

وهذا بخلاف ما إذا قيل : استغفر الله . فقال: أستغر الله . فانه طُلب منه أن يطلب المغفرة من الله . فإذا قال : أستغفر الله، كان ممتثلا . لان المعنى : أطلب من الله أن يغفر لى .

وحيث أراد هذا المعنى فى الاستعاذة فلا ضير أن يأتي بالسين والتاء ، فيقول: أستعيذ بالله . أى أطلب منه أن يعيذنى . ولـكن هذا معنى غير نفس الاعتصام والالتجاء والهرب إليه .

فالأول : مخبر عن حاله وعياذه بر به . وخبره يتضمن سؤاله وطلبه أن يعيذه . والثانى : طالب سائل من ر به أن يعيذه . كأنه يقول : أطلب منك أن تعيذنى .

فحال الأول أ كمل . ولهذا جاء عن النبى صلى الله عليه وسلم فى امتثال هذا

الأمر « أعوذ بالله من الشيطان الرجيم » . و « أعوذ بكلمات الله التامات » . و « أعوذ بعزة الله وقدرته » دون : أستعيذ ، بل الذى علمه الله إياه أن يقول (أعوذ برب الفلق) (أعوذ برب الناس) دون أستعيذ . فتأمل هذه الحكمة البديعة .

فإن قلت : فكيف جاء امتثال هذا الأمر بلفظ الأمر والمأمور به ، فقال (قل أعوذ برب الفلق) و (قل أعوذ برب الناس) ومعلوم أنه إذا قيل : قل الحمد لله ، وقل : سبحان الله فان امتثاله أن يقول : الحمد لله ، وسبحان الله ، ولا يقول : قل سبحان الله .

قلت : هذا هو السؤال الذى أورده أبىّ بن كعب على النبى صلى الله عليه وسلم بعينه ، وأجابه عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم . فقد قال البخارى فى صحيحه . حدثنا قتيبة حدثنا سفيان عن عاصم وعبدة عن زِرِّ بن حُبيش قال « سألت أبىَّ بن كعب عن المعوذتين ؟ فقال : سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ فقال . قيل لى ، فقلت . فنحن نقول كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم » ثم قال : حدثنا على بن عبد الله حدثنا سفيان حدثنا عبدة بن أبى لبابة عن زر بن حبيش . وحدثنا عاصم عن زر قال « سألت أبىّ بن كعب . قلت : أبا المنذر ، إن أخاك ابن مسعود يقول كذا وكذا . فقال : إنى سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ فقال : قيل لى ، فقلت : قل . فنحن نقول كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم »

قلت : مفعول القول محذوف ، وتقديره : قيل لى قل ، أو قيل لى هذا اللفظ . فقلت كما قيل لى .

وتحت هذا من السر : أن النبى صلى الله عليه وسلم ليس له فى القرآن إلا إبلاغه ، لا أنه هو أنشأه من قبل نفسه ، بل هو المبلغ له عن الله . وقد قال الله له (قل أعوذ برب الفلق) فكان مقتضى البلاغ التام أن يقول (قل أعوذ برب الفلق) كما قال الله . وهذا هو المعنى الذى أشار النبى صلى الله عليه وسلم إليه بقوله

« قيـل لى ، فقلت » أى إنى لست مبتدئاً ، بل أنا مبلغ ، أقول كما يقال لى ، وأبلغ كلام ربى كما أنزله إلىّ .

فصلوات الله وسلامه عليه ، لقد بلغ الرسالة ، وأدى الأمانة ، وقال كما قيل له . فـكفانا من المعتزلة والجهمية وإخوانهم ممن يقول : هذا القرآن العربى وهذا النظم كلامه ابتدأ هو به . ففى هذا الحديث أبين الرد لهذا القول ، وأنه صلى الله عليه وسلم بلغ القول الذى أمر بتبليغه على وجهه ولفظه ، حتى إنه لما قيل له « قل » قال هو « قل » لأنه مبلغ محض . وما على الرسول إلا البلاغ .

الفصل الثاني

فى المستعاذ . وهو الله وحده ، رب الفلق . ورب الناس ، ملك الناس ، إله الناس . الذى لاينبغى الاستعاذة إلا به ، ولايستعاذ بأحد من خلقه ، بل هو الذى يعيذ المستعيذين ، ويعصمهم . ويمنعهم من شر ما استعاذوا من شره . وقد أخبر تعالى فى كتابه عمن استعاذ بخلقه : أن استعاذته زادته طغياناً ورَهَقاً . فقال حكاية عن مؤمنى الجن (٧٢ : ٦ وأنه كان رجال من الانس يعوذون برجال من الجن فزادوهم رهقاً) جاء فى التفسير : أنه « كان الرجل من العرب فى الجاهلية إذا سافر فأمسى فى أرض قفر، قال: أعوذ بسيد هذا الوادى من شر سفهاء قومه . فيبيت فى أمن وجوار منهم ، حتى يصبح » أى فزاد الانس الجن باستعاذتهم بسادتهم رهقاً أى طغياناً وإثماً وشرا ، يقولون : سُدنا الانس والجن . و « الرهق » فى كلام العرب : الاثم وغشيان المحارم . فزادوهم بهذه الاستعاذة غشيانا لما كان محظوراً من الـكبر والتعاظم ، فظنوا أنهم سادوا الانس والجن .

واحتج أهل السنة على المعتزلة ، فى أن كلمات الله غير مخلوقة : بأن النبى صلى الله عليه وسلم استعاذ بقوله « أعوذ بكلمات الله التامات » وهو صلى الله عليه وسلم لا يستعيذ بمخلوق أبداً .

ونظير ذلك : قوله «أعوذ برضاك من سخطك ،و بمعافاتك من عقو بتك» فدل على أن رضاه وعفوه من صفاته، وأنه غير مخلوق . وكذلك قوله « أعوذ بعزة الله وقدرته » وقوله « أعوذ بنور وجهك الذى أشرقت له الظلمات » وما استعاذ به النبى صلى الله عليه وسلم غير مخلوق ، فانه لا يستعيذ إلا بالله، أو بصفة من صفاته.

وجاءت الاستعاذة فى هاتين السورتين باسم الرب ، والملك ، والاله .

وجاءت الربوبية فيهما مضافة إلى الفلق ، و إلى النـاس . ولا بد من أن يكون ماوصف به نفسه فى هاتين السورتين يناسب الاستعاذة المطلوبة . و يقتضى دفع الشر المستعاذ منه أعظم مناسبة وأبينها .

وقد قررنا فى مواضع متعددة : أن الله سبحانه يُدعَى بأسمائه الحسنى . فيسأل لكل مطلوب باسم يناسبه و يقتضيه . وقد قال النبى صلى الله عليه وسلم فى هاتين السورتين « إنه ما تعوذ المتعوذون بمثلهما » فلا بد أن يكون الاسم المستعاذ به مقتضياً للمطلوب . وهو دفع الشر المستعاذ منه أو رفعه .

و إنما يتقرر هـذا بالكلام فى الفصل الثالث . وهو الشىء المستعاذ منه . فتتبين المناسبة المذكورة . فنقول :

الفصل الثالث

فى أنواع الشرور المستعاذ منها فى هاتين السورتين

الشر الذى يصيب العبد لا يخلو من قسمين :

إما ذنوب وقعت منه يعاقب عليهـا . فيكون وقوع ذلك بفعـله وقصده وسعيه . ويكون هذا الشر هو الذنوب وموجباتها . وهو أعظم الشرين وأدومهما ، وأشدهما اتصالا بصاحبه .

و إما شر واقع به من غيره . وذلك الغير إما مكلف أو غير مكلف ،والمكلف

إما نظيره ، وهو الانسان ، أو ليس نظيره ، وهو الجنى . وغير المكلف : مثل الهوام وذوات الحُمَة [1] وغيرها .

فتضمنت هاتان السورتان الاستعاذة من هذه الشرور كلها بأوجز لفظ وأجمعه، وأدله على المراد، وأعمه استعاذة ، بحيث لم يبق شر من الشرور إلا دخل تحت الشر المستعاذ منه فيهما .

فإن سورة الفلق تضمنت الاستعاذة من أمور أربعة .

أحدها : شر المخلوقات التي لها شر عموماً .

الثاني : شر الغاسق إذا وقب

الثالث : شر النفاثات في العقد

الرابع : شر الحاسد إذا حسد

فنتكلم على هذه الشرور الأربعة ومواقعها واتصالها بالعبد ، والتحرز منها قبل وقوعها، و بماذا تدفع بعد وقوعها؟

وقبل الكلام فى ذلك لابد من بيان الشر : ماهو ؟ وما حقيقته ؟

فنقول : الشر . يقال على شيئين : على الألم ، وعلى ما يفضى إليه . وليس له مسمى سوى ذلك . فالشرور : هى الآلام وأسبابها . فالمعاصى والكفر والشرك وأنواع الظلم : هى شرور ، و إن كان لصاحبها فيها نوع غرض ولذة ، لكنها شرور . لأنها أسباب للآلام ،ومفضية إليها ، كإفضاء سائر الأسباب إلى مسبباتها . فترتب الألم عليها كترتب الموت على تناول السموم القاتلة ، وعلى الذبح والإحراق بالنار ، والخنق بالحبل ، وغير ذلك من الأسباب التى تكون مفضية إلى مسبباتها،

---

(١) الحمة ـ كثبة ـ وهو السم أوالابرة التى يضرب بها العقرب والحية أو يلدغ بها ونحو ذلك .

ولابد ، مالم يمنع من السببية مانع ، أو يعارض السبب ماهو أقوى منه وأشد اقتضاء لضده ، كما يعارض سبب المعاصى قوة الإيمان ، وعظم الحسنات الماحية وكثرتها . فيزيد فى كميتها أو كيفيتها على أسباب العذاب . فيدفع الأقوى الأضعف .

وهذا شأن جميع الأسباب المتضادة ، كأسباب الصحة والمرض ، وأسباب الضعف والقوة .

والمقصود : أن هذه الأسباب التى فيها لذة مّا هى شر ، وإن نالت بها النفس مسرة عاجلة . وهى بمنزلة طعام لذيذ شهى لكنه مسموم ، إذا تناوله الآكل لَذَّ لأكله وطاب له مساغه . و بعد قليل يفعل به ما يفعل . فهكذا المعاصى والذنوب ولا بد ، حتى لو لم يخبر الشارع بذلك لكان الواقع والتجربة الخاصة والعامة من أكبر شهوده

وهل زالت عن أحد قط نعمة إلا بشؤم معصيته ؟ فإن الله إذا أنعم على عبد نعمة حفظها عليه ، ولا يغيرها عنه حتى يكون هو الساعى فى تغييرها عن نفسه (١٣ : ١١ إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم . و إذا أراد الله بقوم سوءا فلا مرد له . وما لهم من دونه من والٍ) .

(٨ : ٥٣ ذلك بأن الله لم يك مغيراً نعمة أنعمها على قوم حتى يغيروا ما بأنفسهم) .

ومن تأمل ما قص الله فى كتابه من أحوال الأمم الذين أزال نعمه عنهم ، وجد سبب ذلك جميعه : إنما هو مخالفة أمره ، وعصيان رسله . وكذلك من نظر فى أحوال أهل عصره ، وما أزال الله عنهم من نعمه . وجد ذلك كله من سوء عواقب الذنوب ، كما قيل :

إذا كنت فى نعمة فارْعها * فإن المعاصى تزيل النعم

فما حفظت نعمة الله بشىء قط مثل طاعته . ولا حصلت فيها الزيادة بمثل شكره .

ولا زالت عن العبد نعمة بمثل معصيته لربه . فإنها نار النعم التي تعمل فيها كما تعمل النار فى الحطب اليابس . ومن سافر بفكره فى أحوال العالم استغنى عن تعريف غيره له .

والمقصود : أن هذه الأسباب شرور ولا بد .

وأما كون مسبباتها شروراً : فلأنها آلام نفسية و بدنية . فيجتمع على صاحبها مع شدة الألم الحسى ألم الروح بالهموم والغموم والأحزان والحسرات . ولو تفطن العاقل اللبيب لهذا حق التفطن لأعطاه حقه من الحذر والجد فى الهرب . ولكن قد ضُرب على قلبه حجاب الغفلة ليقضى الله أمراً كان مفعولا . فلو تيقظ حق التيقظ لتقطعت نفسه فى الدنيا ، حسرات على ما فاته من حظه العاجل والآجل من الله . و إنما يظهر له هذا حقيقة الظهور عند مفارقة هذا العالم ، والإشراف والاطلاع على عالم البقاء فحينئذ يقول (٨٩ : ٢٤ ياليتنى قدمت لحياتى)و (٣٩ : ٥٦ يا حسرتا على ما فرطت فى جنب الله)

ولما كان الشر هو الآلام وأسبابها ، كانت استعاذات النبى صلى الله عليه وسلم جميعها مدارها على هذين الأصلين . فكل ما استعاذ منه أو أمر بالاستعاذة منه فهو إما مؤلم ، وإما سبب يفضى إليه ، فكان يتعوذ فى آخر الصلاة من أربع . وأمر بالاستعاذة منهن وهى : « عذاب القبر، وعذاب النار » فهذان أعظم المؤلمات «وفتنة المحيا والممات ، وفتنة المسيح الدجال» وهذان سبب العذاب المؤلم . فالفتنة سبب العذاب . وذكر الفتنة خصوصاً . وذكر نوعى الفتنة . لأنها إما فى الحياة و إما بعد الموت . ففتنة الحياة : قد يتراخى عنها العذاب مدة ، وأما فتنة بعد الموت فيتصل بها العذاب من غير تراخ .

فعادت الاستعاذة إلى الاستعاذة من الألم والعذاب وأسبابها .

وهذا من آكد أدعية الصلاة ، حتى أوجب بعض السلف والخلف الإعادة

على من لم يدع به فى التشهد الأخير . وأوجبه ابن حزم فى كل تشهد . فإن لم يأت به فيه بطلت صلاته .

ومن ذلك قوله صلى الله عليه وسلم « اللهم إنى أعوذ بك من الهمِّ والحزَن ، والعجز والكسل ، والجبن والبخل ، وضَلَع الدين[1] وغلبة الرجال » فاستعاذ من ثمانية أشياء كل اثنين منها قرينان .

فالهم والحزن قرينان ، وهما من آلام الروح ومعذِّباتها . والفرق بينهما : أن الهم توقع الشر فى المستقبل . والحزن : هو التألم على حصول المكروه فى الماضى ، أو فوات المحبوب ، وكلاهما تألم وعذاب يرد على الروح . فإن تعلق بالماضى سمى حزنا . و إن تعلق بالمستقبل سمى هَمًّا .

والعجز والكسل قرينان ، وهما من أسباب الألم . لأنهما يستلزمان فوات المحبوب . فالعجز يستلزم عدم القدرة . والكسل يستلزم عدم إرادته . فتتألم الروح لفواته بحسب تعلقها به ، والتذاذها بإدراكه لو حصل .

والجبن والبخل قرينان . لأنهما عدم النفع بالمال والبدن . وهما من أسباب الألم . لأن الجبان تفوته محبوبات ومفرحات وملذوذات عظيمة ، لاتنال إلا بالبذل والشجاعة . والبخل يحول بينه و بينها . فهذان الخلقان من أعظم أسباب الآلام

وضلع الدين ، وقهر الرجال : قرينان . وهما مؤلمان للنفس معذبان لها . أحدهما : قهر بحق ، وهو ضلع الدين . والثانى : قهر بباطل ، وهو غلبة الرجال .

وأيضاً : فضلع الدين . قهر بسبب من العبد فى الغالب . وغلبة الرجال قهر بغير اختياره .

ومن ذلك تعوذه صلى الله عليه وسلم « من المأثم والمغرم » فانهما يسببان الألم العاجل .

---

(١) ضلع الدين : ثقله ، حتى يعجز عن سداده

ومن ذلك قوله « أعوذ برضاك من سخطك ، و بمعافاتك من عقو بتك » فالسخط : سبب الألم ، والعقوبة : هى الألم ، فاستعاذ من أعظم الآلام وأقوى أسبابها .

فصـــــل

والشر المستعاذ منه نوعان .

أحدهما : موجود ، يطلب رفعه . والثانى : معدوم ، يطلب بقاؤه على العدم ، وأن لا يوجد . كما أن الخير المطلق نوعان . أحدهما : موجود فيطلب دوامه وثباته وأن لايسلبه . والثانى : معدوم فيطلب وجوده وحصوله . فهذه أر بعة هى أمهات مطالب السائلين من رب العالمين . وعليها مدار طلباتهم

وقد جاءت هذه المطالب الأر بعة فى قوله تعالى حكاية عن دعاء عباده فى آخر آل عمران فى قولهم (ر بنا إننا سمعنا مناديا ينادى للايمان : أن آمنوا بر بكم . فآمنا، ر بنا فا اغفر لنا ذنو بنا، وكفر عنا سيئاتنا) فهذا الطلب لدفع الشر الموجود. فان الذنوب والسيئـات شر ، كما تقدم بيانه . ثم قال (وتوفنا مع الأبرار) فهذا طلب لدوام الخير الموجود وهو الايمان حتى يتوفاهم عليه . فهذان قسمان .

ثم قال (ر بنا وآتنا ماوعدتنا على رسلك) فهذا طلب للخير المعدوم أن يؤتيهم إياه . ثم قال (ولا تخزنا يوم القيامة) فهذا طلب أن لا يوقع بهم الشر المعدوم ، وهو خزى يوم القيامة .

فانتظمت الآيتان المطالب الأر بعة أحسن انتظام ، مرتبة أحسن ترتيب ، قُدم فيها النوعان اللذان فى الدنيا ، وهما المغفرة ودوام الاسلام إلى الموت . ثم أتبعا بالنوعين اللذين فى الآخرة ، وهما أن يعطوا ما وعدوه على ألسنة رسله ، وأن لا يخزيهم يوم القيامة .

فاذا عرف هذا . فقوله صلى الله عليه وسلم فى تشهد الخطبة « ونعوذ بالله من

شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا » يتناول الاستعاذة من شر النفس ، الذى هو معدوم لكنه فيها بالقوة . فيسأل دفعه وأن لايوجد .

وأما قوله «من سيئات أعمالنا » ففيه قولان .

أحدهما : أنه استعاذة من الأعمال السيئة التى قد وجدت . فيكون الحديث قد تناول نوعى الاستعاذة من الشر المعدوم الذى لم يوجد ، ومن الشر الموجود . فطلب دفع الأول ورفع الثانى .

والقول الثانى : أن سيئات الأعمال هى عقوباتها وموجباتها السيئة التى تسوء صاحبها . وعلى هذا يكون من استعاذة الدفع أيضا دفع المسبب . والأول دفع السبب . فيكون قد استعاذ من حصول الألم وأسبابه .

وعلى الأول : تكون إضافة السيئات إلى الأعمال من باب إضافة النوع إلى جنسه . فان الأعمال جنس وسيئاتها نوع منها .

وعلى الثانى : تكون من باب إضافة المسبب إلى سببه ، والمعلول إلى علته .كأنه قال : من عقوبة عملى . والقولان محتملان .

فتأمل أيهما أليق بالحديث وأولى به . فإن مع كل واحد منهما نوعا من الترجيح . فيترجح الأول بأن منشأ الأعمال السيئة من شر النفس . فشر النفس يولد الأعمال السيئة ، فاستعاذ من صفة النفس ، ومن الأعمال التى تحدث عن تلك الصفة . وهذان جماع الشر ، وأسباب كل ألم . فمتى عوفى منهما عوفى من الشر بحذافيره .

ويترجح الثانى : بأن سيئات الأعمال هى العقوبات التى تسوء العامل ، وأسبابها شر النفس . فاستعاذ من العقوبات والآلام وأسبابها .

والقولان فى الحقيقة متلازمان . والاستعاذة من أحدهما تستلزم الاستعاذة من الآخر .

فصل

ولما كان الشر له سبب : هو مصدره ، وله مورد ومنتهى . وكان السبب إما من ذات العبد ، و إما من خارج . ومورده ومنتهاه إما نفسه و إما غيره : كان هنا أر بعة أمور : شر مصدره من نفسه ، و يعود على نفسه تارة ، وعلى غيره أخرى . وشر مصدره من غيره ، وهو السبب فيه . و يعود على نفسه تارة ، وعلى غيره أخرى ـ جمع النبى صلى الله عليه وسلم هذه المقامات الأر بعة فى الدعاء الذى علمه الصديق رضى الله عنه : أن يقوله إذا أصبح و إذا أمسى و إذا أخذمضجعه «اللهم فاطر السموات والأرض ، عالم الغيب والشهادة ، ربَّ كل شيء ومليكه ، أشهد أن لا إله إلا أنت أعوذ بك من شر نفسى وشر الشيطان وشَرَكه ، وأن اقترف على نفسى سوءاً ، أو أجُرَّه إلى مسلم » فذكر مصدرى الشر،وهما النفس والشيطان وذكر مورديه ونهايتيه ، وهما عوده على النفس ، أو على أخيه المسلم .فجمع الحديث مصادر الشر وموارده فى أوجز لفظ وأخصره وأجمعه وأبينه .

فصــــل

فإذا عرف هذا فلنتكلم على الشرور المستعاذ منها فى هاتين السورتين .

الشر الأول : العام فى قوله (من شر ما خلق) و «ما » ههنا موصولة ليس إلا . والشر مسند فى الآية إلى المخلوق المفعول ، لا إلى خلق الرب تعالى الذى هو فعله وتكوينه، فإنه لا شرفيه بوجه ما. فإن الشر لا يدخل فى شيء من صفاته ، ولا فى أفعاله ، كما لا يلحق ذاته تبارك وتعالى . فإن ذاته لها الكمال المطلق ، الذى لا نقص فيه بوجه من الوجوه . وأوصافه كذلك لها الكمال المطلق والجلال التام ، ولا عيب فيها ولا نقص بوجه ما ، وكذلك أفعاله كلها خيرات محضة ،لا شر فيها أصلا، ولو فعل الشر سبحانه لاشتق له منه اسم ، ولم تكن أسماؤه كلها حسنى ، ولعاد إليه منه حكم ، تعالى ر بنا وتقدس عن ذلك .

ومايفعله من العدل بعباده ، وعقو بة من يستحق العقو بة منهم : هو خير محض

إذ هو محض العدل والحكمة ، وإنما يكون شرا بالنسبة إليهم . فالشر وقع فى تعلقه بهم وقيامه بهم ، لا فى فعله القائم به تعالى. ونحن لا ننكر أن الشر يكون فى مفعولاته المنفصلة فإنه خالق الخير والشر .

ولكن هنا أمران ينبغى أن يكونا منك على بال .

أحدهما : أن ما هو شر، أو متضمن للشر، فإنه لا يكون إلا مفعولا منفصلا لا يكون وصفا له ، ولا فعلا من أفعاله .

الثانى : أن كونه شرا هو أمر نسبى إضافى ، فهو خير من جهة تعلق فعل الرب وتكوينه به ، وشر من جهة نسبته إلى من هو شر فى حقه . فله وجهان ، هو من أحدهما خير ، وهو الوجه الذى نسب منه إلى الخالق سبحانه وتعالى خلقا وتكوينا ومشيئة ، لما فيه من الحكمة البالغة التى استأثر بعلمها ، وأطلع من شاء من خلقه على ماشاء منها ، وأكثر الناس تضيق عقولهم عن مبادىء معرفتها ، فضلا عن حقيقتها ، فيكفيهم الإيمان المجمل بأن الله سبحانه هو الغنى الحميد ، وفاعل الشر لا يفعله إلا لحاجته المنافية لغناه ، أو لنقصه وعيبه المنافى لحمده . فيستحيل صدور الشر من الغنى الحميد فعلا . وإن كان هو الخالق للخير والشر .

فقد عرفت أن كونه شرا هو أمر إضافى ، وهو فى نفسه خير من جهة نسبته إلى خالقه ومبدعه . فلا تغفل عن هذا الموضع فإنه يفتح لك بابا عظيما من معرفة الرب ومحبته . ويزيل عنك شبهات حارت فيها عقول أكثر الفضلاء .

وقد بسطت هذا فى كتاب «التحفة المكية» وكتاب «الفتح القدسى» وغيرهما وإذا أشكل عليك هذا فأنا أوضحه لك بأمثلة .

أحدها: أن السارق إذا قُطعت يده فقطعها شر بالنسبة إليه، وخير محض بالنسبة إلى عموم الناس لما فيه من حفظ أموالهم ، ودفع الضرر عنهم ، وخير بالنسبة إلى متولى القطع أمراً وحكما، لما فى ذلك من الإحسان إلى عبيده عموماً باتلاف هذا العضو المؤذى لهم المضرِّ بهم . فهو محمود على حكمه بذلك ، وأمره به مشكور عليه

يستحق عليه الحمد من عباده ، والثناء عليه والمحبة له .

وكذلك الحكم بقتل من يصول عليهم فى دمائهم وحرماتهم ، وجلد من يصول عليهم فى أعراضهم. فإذا كان هذا عقوبة من يصول عليهم فى دنياهم فكيف عقوبة من يصول على أديانهم، ويحول بينهم و بين الهدى الذى بعث الله به رسله وجعل سعادة العباد فى معاشهم ومعادهم منوطة به ؟ أفليس فى عقوبة هذا الصائل خير محض ، وحكمة وعدل ، و إحسان إلى العبيد ؟ وهى شر بالنسبة إلى الصائل الباغى .

فالشر : ما قام به من تلك العقوبة . وأما ما نسب إلى الرب منها من المشيئة والإرادة والفعل فهو عين الخير والحكمة .

فلا يغلظ حجابك عن فهم هذا النبأ العظيم . والسر الذى يطلعك على مسألة القدر و يفتح لك الطريق إلى الله ، ومعرفة حكمته ورحمته ، و إحسانه إلى خلقه ، وأنه سبحانه : كما أنه البر الرحيم الودود المحسن ، فهو الحكيم الملك العدل ، فلا تناقض حكمتهُ رحمتهُ . بل يضع رحمته و بره و إحسانه موضعه ، ويضع عقوبته وعدله وانتقامه و بأسه موضعه ، وكلاهما مقتضى عزته وحكمته وهو العزيز الحكيم ، فلا يليق بحكمته أن يضع رضاه ورحمته موضع العقوبة والغضب ، ولا أن يضع غضبه وعقوبته موضع رضاه ورحمته .

ولا يلتفت إلى قول من غلظ حجابه عن الله : إن الأمرين بالنسبة إليه على حد سواء ، ولا فرق أصلا . و إنما هو محض المشيئة بلا سبب ولا حكمة .

وتأمل القرآن من أوله إلى آخره كيف تجده كفيلاً بالرد على هذه المقالة ، و إنكارها أشد الإنكار ، وتنزيه الرب نفسه عنها ، كقوله تعالى (٦٨ : ٣٥ ، ٣٦ أفنجعل المسلمين كالمجرمين مالكم كيف تحكمون ؟) وقوله (٤٥ : ٢١ أم حسب الذين اجترحوا السيئات أن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات سواء محياهم ومماتهم ؟ساء مايحكمون) وقوله (٣٨ : ٢٨ أم نجعل الذين آمنو وعملوا الصالحات

كالمفسدين فى الأرض ، أم نجعل المتقين كالفجار ؟)فأ نكر سبحانه على من ظن به هذا الظن السيء ، ونزه نفسه عنه .

فدل على أنه مستقر فى الفطر والعقول السليمة : أن هذا لا يكون ولا يليق بحكمته وعزته وإلٰهيته ، لا إله إلا هو ، تعالى عما يقول الجاهلون علوا كبيرا .

وقد فطر الله عقول عبـاده على استقباح وضع العقو بة والانتقام فى موضع الرحمة والإحسان ، ومكافأة الصنع الجميل بمثلة وزيادة . فإذا وضع العقو بة موضع ذلك استنكرته فطرهم وعقولهم أشد الاستنكار ، واستهجنته أعظم الاستهجان .

وكذلك وضع الاحسان والرحمة والاكرام فى موضع العقو بة والانتقـام ، كما إذا جاء إلى من يسيء إلى العـالم بأنواع الإساءة فى كل شيء من أموالهم وحريمهم ودمائهم،فأ كرمه غاية الإكرام ، ورفعه وكرمه . فإن الفطر والعقول تأبى استحسان هذا ، وتشهد على سفه من فعله . هذه فطرة الله التى فطر الناس عليها

فما للعقول والفطر لا تشهد حكمته البالغة ، وعزته وعدله فى وضع عقو بته فى أولى المحال بها ، وأحقها بالعقو بة ؟ وأنها لوأو ليت النعم لم تحسن بها ، ولم تَلِقْ ، ولظهرت مناقضة الحكمة ، كما قال الشاعر :

نعمة الله لا تعاب ، ولـكن ربما استقبحت على أقوام

فهكذا نعم الله لا تليق ولا تحسن ولا تجمل بأعدائه الصادين عن سبيـله الساعين فى خـلاف مرضاته ، الذين يرضون إذا غضب ، و يغضبون إذا رضى ، ويعطلون ماحكم به،و يسعون فى أن تكون الدعوة لغيره ، والحـكم لغيرد ، والطاعة لغيره. فهم مضادون له فى كل ما يريد، يحبون مايبغضه ، و يدعون إليه .و يبغضون مايحبه و ينفرون عنه ، و يوالون أعداءه وأبغض الخلق اليه ، و يظاهرونهم عليـه وعلى رسوله : كما قال تعالى (٢٥ : ٥٥ وكان الـكافر على ر به ظهيرا) وقال (١٨ : ٥٠ و إذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا ابليس كان من الجن ، ففسق عن أمر ر به . أفتتخذونه وذر يته أولياء من دونى ، وهم لـكم عدو ؟)

فتأمل ماتحت هذا الخطاب الذى يسلب الأرواح حلاوة وعقابا وجلالة وتهديدا كيف صدره باخبارنا : أنه أمر إبليس بالسجود لأبينا فأبى ذلك ، فطرده ولعنه ، وعاداه من أجل إبائه عن السجود لأبينا ، ثم أنتم توالونه من دونى . وقد لعنته وطردته ، إذ لم يسجد لأبيكم ، وجعلته عدوا لكم ولأبيكم ، فواليتموه وتركتمونى . أفليس هذ من أعظم الغبن ، وأشد الحسرة عليكم ؟ و يوم القيامة يقول تعالى « أليس عدلا منى أن أولِّى كل رجل منكم ما كان يتولى فى دار الدنيا ؟ »

فليعلمن أولياء الشيطان : كيف حالهم يوم القيامة : إذا ذهبوا مع أوليائهم ، وبقى أولياء الرحمن لم يذهبوا مع أحد فيتجلى لهم و يقول « ألا تذهبون حيث ذهب الناس ؟ فيقولون : فارقنا الناس أحوج ما كنا إليهم ، و إنما ننتظر ربنا الذى كنا نتولاه ونعبده . فيقول : هل بينكم و بينه علامة تعرفونه بها ؟ فيقولون : نعم ، إنه لامثل له . فيتجلى لهم و يكشف عن ساق ، فيخرون له سجدا »

فيا قرة عيون أوليائه بتلك الموالاة ، و يافرحهم إذا ذهب الناس مع أليائهم ، و بقوا مع مولاهم الحق . فسيعلم المشركون به الصادون عن سبيله أنهم ما كانوا أولياءه (٨ : ٣٤ إن أولياؤه إلا المتقون . ولكن أكثرهم لا يعلمون)

ولا تستطل هذا البسط فما أحوج القلوب إلى معرفته وتعقله ، ونزولها منه منازلها في الدنيا لتنزل فى جوار ربها فى الآخرة ، مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين ، وحسن أولئك رفيقا .

فصــــــل

إذا عرفت هذا عرفت معنى قوله صلى الله عليه وسلم فى الحديث الصحيح « لبيك وسعديك ، والخير فى يديك ، والشر ليس إليك » وأن معناه أجل وأعظم من قول من قال : والشر لا يتقرب به إليك ، وقول من قال : والشر لا يصعد إليك ، وأن هذا الذى قالوه — و إن تضمن تنزيهه عن صعود الشر إليه والتقرب

به إليه ـ فلايتضمن تنزيهه فى ذاته وصفاته وأفعاله عن الشر. بخلاف لفظ المعصوم الصادق المصدق . فإنه يتضمن تنزيهه فى ذاته تبارك وتعالى عن نسبة الشر إليه بوجه ما ، لا فى صفاته ، ولا فى أفعاله ، ولا فى أسمائه . و إن دخل فى مخلوقاته كقوله (قل أعوذ برب الفلق . من شر ماخلق)

وتأمل طريقة القرآن فى إضافة الشر تارة إلى سببه ومن قام به . كقوله (٢ : ٢٥٤ والكافرون هم الظالمون) وقوله (٥ : ١١١ والله لا يهدى القوم الفاسقين) وقوله (٤ : ١٥٨ فبظلم من الذين هادوا) وقوله (٦ :١٤٦ ذلك جزيناهم ببغيهم) وقوله (٤٣ : ٧٦ وما ظلمناهم ولكن كانوا هم الظالمين) وهو فى القرآن أكثر من أن يذكر ههنا عُشر معشاره . و إنما المقصود التمثيل .

وتارة بحذف فاعله . كقوله تعالى حكاية عن مؤمنى الجن (٧٢ : ١٠ و إنا لا ندرى : أشرٌّ أريد بمن فى الأرض . أم أراد بهم ربهم رشدا ؟) فحذفوا فاعل الشر ومريده ، وصرحوا بمريد الرشد .

ونظيره فى الفاتحة (صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين) فذكر النعمة مضافة إليه سبحانه ، والضلال منسوبا إلى من قام به ، والغضب محذوفا فاعله .

ومثله قول الخضر فى السفينة (١٨ : ٧٩ فأردت أن أعيبها) وفى الغلامين (١٨ : ٨٢ فأراد ربك أن يبلغا أشُدَّهما ، و يستخرجا كنزهما رحمةً من ربك) ومثله قوله (٤٩ : ٧ ولكن الله حَبَّب إليكم الإيمان وزَيَّنه فى قلوبكم وكره إليكم الكفر والفسوق والعصيان) فنسب هذا التزيين المحبوب إليه . وقال (٣ : ١٤ زُيِّن للناس حب الشهوات من النساء والبنين) فحذف الفاعل المزين . ومثله قول الخليل صلى الله عليه وسلم (٣٦ : ٧٨ ـ ٨٢ الذى خلقنى فهو يهدين . والذى هو يطعمنى و يسقين . و إذا مرضت فهو يشفين . والذى يميتنى ثم يحيين . والذى أطمع أن يغفرلى خطيئتى يوم الدين) فنسب إلى ربه كل كمال من هذه الأفعال ، ونسب إلى نفسه النقص منها ، وهو المرض والخطيئة .

وهذا كثير فى القرآن ذكرنا منه أمثلة كثيرة فى كتاب الفوائد المكية وبينا هناك السر فى مجىء (٢ : ١٢١ الذين آتيناهم الكتاب) (٢ : ١٠١ والذين أوتوا الكتاب) والفرق بين الموضعين ، وأنه حيث ذكر الفاعل كان من آتاه الكتاب واقعاً فى سياق المدح . وحيث حذفه كان من أوتيه واقعاً فى سياق الذم أو منقسما . وذلك من أسرار القرآن .

ومثله (٣٥ : ٣٢ ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا) وقال (٤٢ : ١٤ وإن الذين أورثوا الكتاب من بعدهم لفى شك منه مريب) وقال (٧ : ١٦٨ فخلف من بعدهم خلف ورثوا الكتاب يأخذون عرض هذا الأدنى)

وبالجملة : فالذى يضاف إلى الله تعالى كله خير وحكمة ومصلحة ، وعدل . والشر ليس إليه .

فصل

وقد دخل فى قوله تعالى « من شر ماخلق » الاستعاذة من كل شر فى أى مخلوق قام به الشر : من حيوان ، أو غيره ، إنسيا كان أو جنيا ، أو هامة أو دابة أو ريحا ، أو صاعقة ، أى نوع كان من أنواع البلاء .

فإن قلت : فهل في « ما » ههنا عموم ؟

قلت : فيها عموم تقييدى وصفى ، لا عموم إطلاقى . والمعنى : من شر كل مخلوق فيه شر . فعمومها من هذا الوجه . وليس المراد الاستعاذة من شر كل ما خلقه الله . فإن الجنة وما فيها ليس فيها شر . وكذلك الملائكة والأنبياء فإنهم خير محض . والخير كله حصل على أيديهم ، فالاستعاذة من شر ما خلق : تعم شر كل مخلوق فيه شر . وكل شر فى الدنيا والآخرة ،وشر شياطين الإنس والجن وشر السباع والهوام ، وشر النار والهواء ، وغير ذلك . وفى الصحيح : عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال « من نزل منزلا فقال : أعوذ بكلمات الله التامات من شر ما خلق . لم يضره شىء ، حتى يرتحل منه » رواه مسلم . وروى أبو داود

فى سننه عن عبد الله بن عمر قال « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا سافر فأقبل الليل ، قال : ياأرض ، ربى وربك الله ، أعوذ بالله من شرك ، وشر مافيك وشر ما خلق فيك ، وشر ما يَدُبُّ عليك ، أعوذ بالله من أَسَد وأسْود ، ومن الحية والعقرب ، ومن ساكن البلد ، ومن والد وما ولد »

وفى الحديث الآخر «أعوذ بكلمات الله التامات التى لا يجاوزهن بَرٌّ ولافاجر : من شر ماخلق ، وذرأ وبرأ ، ومن شر ما نزل من السماء وما يعرج فيها ، ومن شر ماذرأ فى الأرض وما يخرج منها ، ومن شر فتن الليل والنهار ، ومن شر كل طارق ، إلا طارقا يطرق بخير يا رحمن »

فصـــــل

الشر الثانى : شر الغاسق إذا وَقَب . فهذا خاص بعد عام . وقد قال أكثر المفسرين : إنه الليل .

قال ابن عباس : الليل إذا أقبل بظلمته من المشرق ، ودخل فى كل شىء وأظلم والغسق : الظلمة . يقال : غسق الليل ، وأغسق : إذا أظلم . ومنه قوله تعالى (١٧ : ٧٨ أقم الصلاة لدلوك الشمس إلى غَسَق الليل) وكذلك قال الحسن ومجاهد : الغاسق إذا وقب : الليل إذا أقبل ودخل . والوقوب : الدخول ، وهو دخول الليل بغروب الشمس . وقال مقاتل : يعنى ظلمة الليل إذا دخل سواده فى ضوء النهار .

وفى تسمية الليل غاسقا قول آخر : أنه من البرد ، والليل أبرد من النهار ، والغسق : البرد . وعليه حمل ابن عباس قوله تعالى (٣٨ : ٥٦ فليذوقوه حميم وغَسّاق) وقوله (٧٨ : ٢٥ لا يذوقون فيها بردا ولا شرابا إلا حميما وغساقا) قال : هو الزمهرير يحرقهم ببرده . كما تحرقهم النار بحرها . وكذلك قال مجاهد ومقاتل : هو الذى انتهى برده .

ولا تنافى بين القولين . فإن الليل بارد مظلم . فمن ذكر برده فقط ، أو ظلمته فقط : اقتصر على أحد وصفيه .

والظلمة فى الآية أنسب لمكان الاستعاذة . فإن الشر الذى يناسب الظلمة أولى بالاستعاذة من البرد الذى فى الليل . ولهذا استعاذ برب الفلق الذى هو الصبح والنور : من شر الغاسق ، الذى هو الظلمة . فناسب الوصف المستعاذ به المعنى المطلوب بالاستعاذة . كما سنزيده تقريرا عن قريب إن شاء الله .

فإن قيل : فما تقولون فيما رواه الترمذى من حديث ابن أبى ذئب عن الحرث ابن عبد الرحمن عن أبى سلمة عن عائشة قالت « أخذ النبى صلى الله عليه وسلم بيدى ، فنظر إلى القمر ، فقال : يا عائشة ، استعيذى بالله من شر هذا . فان هذا هو الغاسق إذا وقب » قال الترمذى : هذا حسن صحيح . وهذا أولى من كل تفسير . فيتعين المصير إليه ؟

قيل : هذا التفسير حق ، ولا يناقض التفسير الأول ، بل يوافقه ، ويشهد لصحته . فإن الله تعالى قال (١٧ : ١٢ وجعلنا الليل والنهار آيتين ، فمحونا آية الليل ، وجعلنا آية النهار مبصرة) فالقمر هو آية الليل ، وسلطانه فيه . فهو أيضاً غاسق إذا وقب ، كما أن الليل غاسق إذا وقب ، والنبى صلى الله عليه وسلم أخبر عن القمر بأنه غاسق إذا وقب . وهذا خبر صدق . وهو أصدق الخبر ، ولم ينف عن الليل اسم الغاسق إذا وقب . وتخصيص النبى صلى الله عليه وسلم له بالذكر لا ينفى شمول الاسم لغيره .

ونظير هذا : قوله فى المسجد الذى أسس على التقوى — وقد سئل عنه — فقال « هو مسجدى هذا » ومعلوم أن هذا لا ينفى كون مسجد قباء مؤسساً على التقوى مثل ذاك .

ونظيره أيضاً : قوله فى على وفاطمة والحسن والحسين رضى الله عنهم أجمعين « اللهم هؤلاء أهل بيتى » فإن هذا لا ينفى دخول غيرهم من أهل بيته فى لفظ

أهل البيت ، ولـكن هؤلاء أحق من دخل فى لفظ أهل بيته .

ونظير هذا : قوله « ليس المسكين بهذا الطواف الذى ترده اللقمة واللقمتان ، والتمرة والتمرتان ،ولـكن المسكين الذى لايسأل الناس شيئاً ، ولا يُفطَن له فيتَصدَّق عليه » وهذا لا ينفى اسم المسكنة عن الطواف ، بل ينفى اختصاص الاسم به ، وتناول المسكين لغير السائل أولى من تناوله له .

ونظير هـذا : قوله « ليس الشديد بالصُّرَعة ، ولـكن الذى يملك نفسه عند الغضب » فإنه لا يقتضى نفى الاسم عن الذى يصرع الرجال ، ولـكن يقتضى أن ثبوته للذى يملك نفسه عند الغضب أولى .

ونظيره : الغسق ، والوقوب ، وأمثال ذلك .

فـكذلك قوله فى القمر « هذا هو الغاسق إذا وقب » لاينفى أن يكون الليل غاسقاً ، بل كلاهما غاسق .

فإن قيل : فما تقولون فى القول الذى ذهب إليه بعضهم : أن المراد به القمر إذا خُسف واسْوَدَّ . وقوله « وقب » أى دخل فى الخسوف ، أو غاب خاسفاً ؟

قيل : هذا القول ضعيف . ولا نعلم به سلفاً . والنبى صلى الله عليـه وسلم لما أشار إلى القمر ، وقال « هذا الغاسق إذا وقب » لم يكن خاسفاً إذ ذاك . و إنما كان مستنيراً ، ولو كان خاسفاً لذكرته عائشة . و إنما قالت « نظر إلى القمر ، وقال : هذا هو الغاسق » ولو كان خاسفاً لم يصح أن يحذف ذلك الوصف منه . فإن ما أطلق عليه اسم الغاسق باعتبار صفة لايجوز أن يطلق عليه بدونها ، لما فيه من التلبيس .

وأيضاً : فإن اللغة لا تساعد على هذا . فلا نعلم أحداً قال : الغاسق : القمر فى حال خسوفه .

وأيضاً : فإن الوقُوب لا يقول أحد من أهل اللغة : إنه الخسوف ، و إنما هو الدخول ، من قولهم : وقبت العين : إذا غارت ، ورُكية وَقْباء : غارماؤها . فدخل

فى أعماق التراب . ومنه الوَقْب للثقب الذى يدخل فيه المحور . وتقول العرب : وَقَب يَقِب وُقوبا إذا دخل .

فإن قيل : فما تقولون فى القول الذى ذهب إليه بعضهم : أن الغاسق هو الثريا إذا سقطت ، فإن الأسقام تكثر عند سقوطها وغروبها ، وترتفع عند طلوعها ؟ .

قيل : إن أراد صاحب هذا القول اختصاص الغاسق بالنجم إذا غرب فباطل . و إن أراد : أن اسم الغاسق يتناول ذلك بوجه ما : فهذا يحتمل أن يدل اللفظ عليه بفحواه ومقصوده وتنبيهه . وأما أن يختص به اللفظ به فباطل .

فصــــل

والسبب الذى لأجله أمر الله بالاستعاذة من شر الليل وشر القمر إذا وقب هو : أن الليل إذا أقبل فهو محل سلطان الأرواح الشريرة الخبيثة . وفيه تنتشر الشياطين . وفى الصحيح « أن النبى صلى الله عليه وسلم أخبر أن الشمس إذا غربت انتشرت الشياطين » ولهذا قال : « فاكفِتوا صبيانكم ، واحبسوا مواشيكم حتى تذهب فَحْمة العشاء » وفى حديث آخر « فإن الله يبث من خلقه ما يشاء »

والليل هو محل الظلام . وفيه تتسلط شياطين الإنس والجن مالا تتسلط بالنهار . فان النهار نور ، والشياطين إنما سلطانهم فى الظلمات والمواضع المظلمة ، وعلى أهل الظلمة .

وروى أن سائلا سأل مسيلمة : كيف يأتيك الذى يأتيك ؟ فقال : فى ظلماء حِنْدِس . وسئل النبى صلى الله عليه وسلم « كيف يأتيك ؟ فقال : فى مثل ضوء النهار » فاستدل بهذا على نبوته ، وأن الذى يأتيه ملك من عند الله ، وأن الذى يأتى مسيلمة شيطان .

ولهذا كان سلطان السحر وعظم تأثيره إنما هو بالليل دون النهار، فالسحر الليلى

عندهم : هو السحر القوى التأثير . ولهذا كانت القلوب المظلمة هى محال الشياطين و بيوتهم ومأواهم ، والشياطين تجول فيها ، وتتحكم كما يتحكم ساكن البيت فيه . وكلما كان القلب أظلم كان للشيطان أطوع ، وهو فيه أثبت وأمكن .

فصــــــل

ومن ههنا : تعلم السر فى الاستعاذة برب الفلق فى هذا الموضع .

فان الفلق : هو الصبح الذى هو مبدأ ظهور النور ، وهو الذى يطرد جيش الظلام ، وعسكر المفسدين فى الليل . فيأوى كل خبيث وكل مفسد وكل لص وكل قاطع طريق إلى سِرْب أو كِنّ أو غار ، وتأوى الهوام إلى أجحرتها ، والشياطين التى انتشرت بالليل إلى أمكنتها ومحالها . فأمر الله عباده أن يستعيذوا برب النور الذى يقهر الظلمة و يزيلها ، و يقهر عسكرها وجيشها . ولهذا ذكر سبحانه فى كل كتاب : أنه يخرج عباده من الظلمات إلى النور ، ويدع الكفار فى ظلمات كفرهم . قال الله تعالى (٢ : ٢٥٧ الله ولى الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور . والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت ، يخرجونهم من النور إلى الظلمات) وقال تعالى (٦ : ١٢٢ أو من كان ميتاً فأحييناه وجعلنا له نوراً يمشى به فى الناس كمن مثله فى الظلمات ليس بخارج منها ؟) وقال فى أعمال الكفار (٢٤ : ٤٠ أو كظلمات فى بحر لُجِّيّ يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب ، ظلمات بعضها فوق بعض ، إذا أخرج يده لم يكد يراها . ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور) وقد قال قبل ذلك فى صفات أهل الايمان ونورهم (٢٤ : ٣٦ الله نور السموات والأرض ، مثل نوره كمشكاة فيها مصباح ، المصباح فى زجاجة ، الزجاجة كأنها كوكب دُرِّى يوقد من شجرة مباركة زيتونة لاشرقية ولا غربية ، يكاد زيتها يضىء ولو لم تمسسه نار، نور على نور يهدى الله لنوره من يشاء)

فالايمان كله نور، ومآله إلى نور، ومستقره فى القلب المضىء المستنير، والمقترن

بأهله الأرواح المستنيرة المضيئة المشرقة . والكفر والشرك كله ظلمة ، ومآله إلى الظلمات ومستقره فى القلوب المظلمة ، والمقترن بأهله الأرواح المظلمة .

فتأمل الاستعاذة برب الفلق من شر الظلمة ، ومن شر ما يحدث فيها وتنزل هذا المعنى على الواقع يشهد بأن القرآن ، بل هاتان السورتان ، من أعظم أعلام النبوة ، و براهين صدق رسالة محمد صلى الله عليه وسلم ،ومضادته لما جاءبه الشياطين من كل وجه ، وأن ما جاء به ماتنزلت به الشياطين ، وما ينبغى لهم وما يستطيعون فما فعلوه . ولا يليق بهم ، ولا يتأتى منهم ، ولا يقدرون عليه .

وفى هذا أبين جواب وأشفاه لما يورده أعداء الرسول عليه من الأسئلة الباطلة التى قصَّر المتكلمون غاية التقصير فى دفعها ، وما شفوا فى جوابها . و إنما الله سبحانه هو الذى شَفَى وكفى فى جوابها . فلم يحوجنا إلى متكلم ، ولا إلى أصولى ، ولا إلى نَظَّار . فله الحمد والمنّة ، لا نُحصى ثناء عليه .

فصـــــل

واعلم أن الخلق كله فلق . وذلك أن « فلقا » فَعل بمعنى مفعول ، كقَبَض وسَلَب ، وقنص : بمعنى مقبوض ومسلوب ومقنوص . والله عز وجل (٦:٩٦ فالق الإصباح)و(٦:٩٥ فالق الحب والنوى) وفالق الأرض عن النبات ، والجبال عن العيون ، والسحاب عن المطر ، والأرحام عن الأجنَّة ، والظلام عن الإصباح . ويسمى الصبح المتصدع عن الظلمة : فلقاً وفرَقا . يقال : هو أبيض من فرَق الصبح وفلقه .

وكما أن فى خلقه فلقاً وفَرَقا . فكذلك أمره كله فُرقان ، يفرق بين الحق والباطل . فيفرق ظلام الباطل بالحق ، كما يفرق ظلام الليل بالإصباح . ولهذا سمى كتابه « الفرقان » ونَصْره فرقاناً ، لتضمنه الفرق بين أوليائه وأعدائه . ومنه فَلْقه البحر لموسى ، وسماه فلقاً .

فظهرت حكمة الاستعاذة برب الفلق فى هـذه المواضع . وظهر بهذا إعجاز القرآن ، وعظمته وجلالته ، وأن العباد لا يقدرون قدره ، وأنه (تنزيل من حكيم حميد)

فصـــــل

الشر الثالث : شر النفَّاثات فى العُقد .

وهذا الشر هو شر السحر . فإن النفاثات فى العُقد : هن السواحر اللاتى يعقدن الخيوط ، وينفثن على كل عقدة ، حتى ينعقد مايردن من السحر . والنفث : هو التفخ مع ريق . وهو دون التَّفْل . وهو مرتبة بينهما .

والنفث : فعل الساحر . فإذا تـكيَّـفت نفسه بالخبث والشر الذى يريده بالمسحور ، ويستعين عليه بالأرواح الخبيثة ، نفخ فى تلك العقد نفخا معه ريق ، فيخرج من نفسه الخبيثة نفَس ممازج للشر والأذى ، مقترن بالريق الممازج لذلك . وقد تَساعَد هو والروح الشيطانية على أذى المسحور . فيقع فيه السحر بإذن الله الـكونى القدرى . لا الأمرى الشرعى .

فإن قيل : فالسحر يكون من الذكور والإناث ، فلم خص الاستعاذة من الإناث دون الذكور ؟

قيل فى جوابه : إن هـذا خرج على السبب الواقع ، وهو أن بنات لبيد ابن الأعصم سحرن النبى صلى الله عليه وسلم .

هذا جواب أبى عبيدة وغيره . وليس هذا بسديد . فإن الذى سحر النبى صلى الله عليه وسلم هو لبيد بن الأعصم ، لا بناته ، كما جاء فى الصحيح .

والجواب المحقق : أن النفاثات هنا : هن الأرواح والأنفس النفاثات لا النساء[1]

---

(١) ولعل الأظهر فى مراد الآية : أن المراد من « النفاثات » الأحوال والصفات والأعمال ، والنوايا والمقاصد الشريرة ، التى تـكون من الحاسد الشرير فى حل ما بين العبد وبين ربه من صلات العبودية ، وفصم ما بين الزوجين من عقدة النكاح وحل ما بين الصديقين من عقدة المودة والأخوة ؛ وحل ما بين =

النفاثات . لأن تأثير السحر إنما هو من جهة الأنفس الخبيثة ، والأرواح الشريرة وسلطانه إنما يظهر منها. فلهذا ذكرت النفاثات هنا بلفظ التأنيث ، دون التذكير. والله أعلم .

ففى الصحيح : عن هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة « أن النبى صلى الله عليه وسلم طُبَّ ، حتى إنه ليُخيَّل إليه أنه صنع شيئاً وما صنعه ، وإنه دعا ربه ، ثم قال : أشَعُرتِ أن الله قد أفتانى فيما استفتيته فيه ؟ فقالت عائشة : وما ذاك يارسول الله ؟ قال : جاءنى رجلان ، فجلس أحدهما عند رأسى ، والآخر عند رجلىّ فقال أحدهما لصاحبه : ما وَجَعُ الرجل ؟ قال الآخر : مطبوب . قال : من طَبَّه ؟ قال : لَبيد بن الأعصم . قال فيماذا ؟ قال : فى مِشْط ومِشاطة ، وجَفِّ طَلْع ذكر. قال : فأين هو ؟ قال : فى ذَرْوان ، بئر فى بنى زُريق . قالت عائشة رضى الله عنها فأتاها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم رجع إلى عائشة فقال : والله لكأن ماءها نُقاعة الحِنَّاء ، ولكأن نخلَها رؤس الشياطين . قالت : فقلت له : يا رسول الله ، هلاَّ أخرجته ؟ قال : أما أنا فقد شفانى الله ، وكرهت أن أثير على الناس شراً . فأمر بها ، فدُفنت » قال البخارى : وقال الليث وابن عيينة عن هشام « فى مِشْط ومِشاقة »

ويقال : إن المشاطة : ما يخرج من الشعر إذا مُشِط ، والمشاقة : من مشاقة الكتان .

قلت : هكذا فى هذه الرواية : أنه لم يخرجه ، اكتفاء بمعافاة الله له . وشفائه إياه .

= الناس من عقدة الأرحام ؛ وغيرها ، مما يكون بها التعاون على البر والتقوى . فإن هذه الصفات والأحوال ، التى تكسب صاحبها الشرير صفة الغيبة والنميمة ، والغمز واللمز ، وأمثالها من الأسباب التى ينفثها سموما توهن الروابط ، وتقطع الأواصر فيتولد عنها العداء بين الناس ، وتفرقهم واختلافهم وحروبهم والله أعلم .

وقد روى البخارى من حديث ابن عيينة قال « أول من حدثنا به ابن جريج يقول : حدثنى آل عروة عن عروة . فسألت هشاماً عنه ؟ فحدثنا عن أبيه عن عائشة : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم سُحر ، حتى كان يرى أنه يأتى النساء ولا يأتيهن . قال سفيان : وهذا أشد ما يكون من السحر ، إذا كان كذا . فقال : يا عائشة ، أعلمتِ أن الله قد أفتانى فيما استفتيته فيه ؟ أتانى رجلان ، فقعد أحدهما عند رأسى ، والآخر عند رجلى . فقال الذى عند رأسى للآخر : ما بال الرجل ؟ قال : مطبوب . قال : ومن طَبَّه ؟ قال : لبيد بن الأعصم ، رجلٌ من بني زريق حليف ليهود . وكان منافقاً . قال : وفيم ؟ قال : فى مشط ومشاقة . قال : وأين ؟ قال فى جَفِّ طَلْع ذكر ، تحت راعوفة فى بئرِ ذَروان . قال : فأتى البئرَ حتى استخرجه . فقال : هذه البئر التى أُريتها ، وكأنَّ ماءها نُقاعة الحناء ، وكأن نخلها رءوس الشياطين . قال : فاستخرج. قالت . فقلت : أفلا — أى تَنَشَّرتَ — ؟ قال : أمَّا الله فقد شفانى ، وأكره أن أثير على أحد من الناس شراً »

ففى هذا الحديث : أنه استخرجه . وترجم البخاري عليه : باب هل يُستخرج السحر . وقال قتادة : قلت لسعيد بن المسيب : رجل به طَبٌّ ، ويُؤخذ عن امرأته أيُحَلَّ عنه ويُنْشَر ؟ قال : لا بأس به ، إنما يريدون به الإصلاح . فأما ما ينفع الناس فلم ينه عنه .

فهذان الحديثان قد يظن فى الظاهر تعارضهما . فإن حديث عيسى عن هشام عن أبيه : الأول فيه : أنه لم يستخرجه . وحديث ابن جريج عن هشام فيه « أنه استخرجه » ولا تنافى بينهما . فإنه استخرجه من البئر حتى رآه وعلمه ، ثم دفنه بعد أن شفى . وقول عائشة « هلا استخرجته ؟» أى هلا أخرجته للناس حتى يروه ويعاينوه ؟ فأخبرها بالمانع له من ذلك ، وهو أن المسلمين لم يكونوا ليسكتوا عن ذلك ، فيقع الإنكار ، ويغضب للساحر قومه ، فيحدث الشر . وقد حصل المقصود بالشفاء والمعافاة . فأمر بها فدُفنت ، ولم يستخرجها للناس . فالاستخراج الواقع غير الذى سألت عنه عائشة .

والذى يدل عليه : أنه صلى الله عليه وسلم إنما جاء إلى البئر ليستخرجها منه ولم يجىء لينظر إليها ثم ينصرف ، إذ لا غرض له فى ذلك. والله أعلم .

وهذا الحديث ثابت عند أهل العلم بالحديث ، متلقىً بالقبول بينهم . لا يختلفون فى صحته . وقد اعتاصَ على كثير من أهل الكلام وغيرهم ، وأنكروه أشد الإنكار . وقابلوه بالتكذيب ، وصنف بعضهم فيه مصنفاً مفرداً ، حمل فيه على هشام . وكان غاية ما أحسن القول فيه : أن قال : غلط ، واشتبه عليه الأمر ، ولم يكن من هذا شىء . قال : لأن النبى صلى الله عليه وسلم لا يجوز أن يُسْحَر . فإنه يكون تصديقاً لقول الكفار (١٧ : ٣٧ ، ٢٥ : ٨ إن تتبعون إلا رجلا مسحوراً)

قالوا : وهذا كما قال فرعون لموسى (١٧ : ١٠١ وإنى لأظنك يا موسى مسحوراً) وكما قال قوم صالح له (٢٦ : ١٥٣ إنما أنت من المسحرين) وكما قال قوم شعيب له (٢٦ : ٨٥ إنما أنت من المسحرين)

قالوا : فالأنبياء لا يجوز عليهم أن يسحروا . فإن ذلك ينافى حماية الله لهم ، وعصمتهم من الشياطين .

وهذا الذى قاله هؤلاء مردود عند أهل العلم . فإن هشاماً من أوثق الناس وأعلمهم ، ولم يقدح فيه أحد من الأئمة بما يوجب رد حديثه . فما للمتكلمين وما لهذا الشأن ؟ وقد رواه غير هشام عن عائشة . وقد اتفق أصحاب الصحيحين على تصحيح هذا الحديث ، ولم يتكلم فيه أحد من أهل الحديث بكلمة واحدة . والقصة مشهورة عن أهل التفسير والسنن والحديث والتاريخ والفقهاء . وهؤلاء أعلم بأحوال رسول الله وأيامه من المتكلمين .

قال أبو بكر بن أبى شيبة : حدثنا أبو معاوية عن الأعمش عن يزيد بن حبان عن زيد بن أرقم قال « سحر النبىَّ صلى الله عليه وسلم رجل من اليهود ، فاشتكى لذلك أياماً . قال : فأتاه جبريل ، فقال : إن رجلا من اليهود سحرك ، وعقدَ

لذلك عقداً . فأرسل رسول الله صلى الله عليه وسلم عليا . فاستخرجها ، فجاء بها ، فجعل كُلَّما حلَّ عقدة وجد لذلك خِفَّة . فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم كأنما نَشِط من عقال . فما ذكر ذلك لليهودى ، ولا رآه فى وجهه قط » وقال ابن عباس وعائشة « كان غلام من اليهود يخدم رسول الله صلى الله عليه وسلم . فدنت إليه اليهود . فلم يزالوا حتى أخذ مِشاطة رأس النبى صلى الله عليه وسلم ، وعِدَّة أسنان من مشطه . فأعطاها اليهود ، فسحروه فيها ، وتولَّى ذلك لبيدُ بن الأعصم : رجلٌ من اليهود . فنزلت هاتان السورتان فيه » .

قال البغوى : وقيل « كانت مغروزة بالأبر . فأنزل الله عز وجل هاتين السورتين . وهما أحد عشر آية : سورة الفلق خمس آيات ، وسورة الناس ست آيات فكلما قرأ آية انحلت عقدة ، حتى انحلت العقد كلها . فقام النبى صلى الله عليه وسلم كأنما أنشط من عقال » قال : وروى أنه لبث فيه ستة أشهر ، واشتد عليه ثلاثة أيام فنزلت المعوذتان .

قالوا : والسحر الذى أصابه كان مرضاً من الأمراض عارضاً شفاه الله منه . ولا نقص فى ذلك ، ولا عيب بوجه ما . فإن المرض يجوز على الأنبياء . وكذلك الإغماء . فقد أغمى عليه صلى الله عليه وسلم فى مرضه ، ووقع حين انفكَّت قدمه وجُحِش شِقَّه [١] وهذا من البلاء الذى يزيده الله به رفعة فى درجاته ، ونيل كرامته . وأشد الناس بلاء الأنبياء . فابتلوا من أممهم بما ابتلوا به : من القتل ، والضرب ، والشتم ، والحبس . فليس ببدْع أن يُبتلَى النبى صلى الله عليه وسلم من بعض أعدائه بنوع من السحر ، كما ابتلى بالذى رماه فشَجَّه . وابتلى بالذى ألقى على ظهره السَّلا [٢] وهو ساجد ، وغير ذلك . فلا نقص عليهم . ولا عار فى

---

(١) فى الحديث « أنه صلى الله عليه وسلم سقط عن فرس فجحش شقه » أى انخدش . وكان ذلك فى غزوة أحد . حين تكأكأ عليه المشركون .

(٢) السلا : ما يخرج من بطن الناقة ونحوها مع الولد . مما كان فى الرحم لحفظه

ذلك ، بل هذا من كمالهم ، وعلو درجاتهم عند الله .

قالوا : وقد ثبت فى الصحيح عن أبي سعيد الخدرى « أن جبريل أتى النبى صلى الله عليه وسلم فقال: يامحمد اشتكيت ؟ فقال : نعم . فقال : باسم الله أرقيك ، من كل شىء يؤذيك ، من شر كل نفس ، أو عين حاسد ، الله يشفيك ، بسم الله أرقيك » فعوّذه جبريل من شر كل نفس وعين حاسد ، لما اشتكى . فدل على أن هذا التعويذ مزيل لشكايته صلى الله عليه وسلم ، وإلا فلا يعوذه من شىء وشكايته من غيره .

وقالوا : وأما الآيات التى استدللتم بها فلا حجة لكم فيها .

أما قوله تعالى عن الكفار : إنهم قالوا (إن تتبعون إلا رجلا مسحورا) وقول قوم صالح وشعيب لهما (إنما أنت من المسحرين) فقيل : المراد به من له سَحْر ، وهى الرئة ، أى إنه بشر مثلهم ، يأكل ويشرب ، ليس بملك ، وليس المراد به السحر .

وهذا جواب غير مرضى . وهو فى غاية البعد . فان الكفار لم يكونوا يعبرون عن البشر بمسحور ، ولا يعرف هذا فى لغة من اللغات . وحيث أرادوا هذا المعنى أتوا بصريح لفظ البشر ، فقالوا (٣٦ : ١٥ ما أنتم إلا بشر مثلنا) و(٢٣ : ٤٨ أنؤمن لبشرين مثلنا) و (١٧ : ٩٤ أبعث الله بشرا رسولا) . وأما المسحور فلم يريدوا به ذا السَّحْر ، وهى الرئة . وأىُّ مناسبة لذكر الرئة فى هذا الموضع ؟

ثم كيف يقول فرعون لموسى (إنى لأظنك ياموسى مسحورا) ؟ أفتراه ماعلم أن له سَحْرا ، وأنه بشر ؟

ثم كيف يجيبه موسى بقوله (١٧ : ١٠٢ إنى لأظنك يافرعون مَثْبورا) ولو أراد بالمسحور : أنه بشر لصدّقه موسى ، وقال : نعم ، أنا بشر أرسلنى الله إليك ، كما قالت الرسل لقومهم لما قالوا لهم (١٤ : ١٠ إن أنتم إلا بشر مثلنا) فقالوا

(١٤ : ١١ إن نحن إلا بشر مثلكم) ولم ينكروا ذلك [١]

فهذا الجواب فى غاية الضعف .

وأجابت طائفة ، منهم ابن جرير وغيره : بأن المسحور هنا هو معلَّم السحر الذى قد علمه إياه غيره . فالمسحور عنده : بمعنى ساحر ، أى عالم بالسحر .

وهذا جيدٌ إن ساعدت عليه اللغة . وهو أن من عُلِّم السحر يقال له مسحور . ولا يكاد هذا يعرف فى الاستعمال ، ولا فى اللغة . و إنما المسحور من سَحَره غيره ، كالمطبوب والمضروب والمقتول و بابه . وأما من عُلِّم السحر فانه يقال له : ساحر ، بمعنى أنه عالم بالسحر ، و إن لم يسحر غيره . كما قال قوم فرعون لموسى (٧ : ١٠٩ إن هذا لساحر عليم) ففرعون قذفه بكونه مسحورا ، وقومه قذفوه بكونه ساحرا .

---

(١) قد ذكر الله فى كتابه أن المشركين ردوا على أنبيائهم — من نوح إلى محمد عليهم الصلاة والسلام — بأنهم بشر مثلهم . وهذا ماأوحاه إليهم إمامهم إبليس عليه وعليهم لعنة الله — ومعنى ذلك : أنهم يقولون لهم : إنكم كاذبون فى دعواكم الرسالة والسفارة والوساطة بين الله وبين خلقه فى تبليغ الشرائع . لأنكم بشر مثلنا ، وليس لكم مالأوليائنا ووسطائنا من المزايا والصفات التى كانوا بها وسائلنا ووسطاءنا إلى ربنا . وما تلك الخصائص والمزايا : إلا أنهم النور الأول فاض من الرب . فكان فيهم من هذا النور جزء خارج عن البشرية ، ارتقوا به حتى كانوا وسطا بين البشرية . والربوبية . ولهم من هذا السر النوارنى من صفات الربوبية : الحياة والقدرة والعلم والسمع والبصر والقهر والقوة ، وغيرها فهم — وإن كانوا فى الصورة بشرا مثلنا — لكن لهم بهذه الخصائص والمزايا أسرار مع الرب ، لا يصل إليها البشر الخالص البشرية مثلنا ومثلكم . ومن تدبر آيات القرآن مع بعضها فى تحديد الشرك وأساسه وخبر احوال مشركى أهل زمانه وعقائدهم التى تتحدث عنها أعمالهم . وفقه قول الله تعالى (٤٣ : ١١ وجعلوا له من عباده جزءا) وقوله (٥ : ١٨ وقالت اليهود والنصارى نحن أبناء الله وأحباؤه قل : فلم يعذبكم بذنوبكم ، بل أنتم بشر ممن خلق) ونفيه عقب ذكر الشرك والمشركين دائماً : أن يكون له ولد ، ودرس عقائد وثنى الهند والصين واليابان وقدماء المصريين واليونان وغيرهم : اتضح له هذا المعنى

فالصواب : هو الجواب الثالث . وهو جواب صاحب الكشاف وغيره : أن « المسحور » على بابه . وهو من سُحر حتى جُنَّ . فقالوا : مسحور ، مثل مجنون أى زائل العقل ، لايعقل مايقول . فان المسحور الذى لايُتَّبع : هو الذى فسد عقله ، بحيث لايدرى مايقول . فهو كالمجنون . ولهذا قالوا فيه (٤٤ : ١٥ مُعَلَّم مجنون) فأما من أصيب فى بدنه بمرض من الأمراض يصاب به الناس ، فإنه لايمنع ذلك من اتِّباعه . وأعداء الرسل لم يقذفوهم بأمراض الأبدان ، و إنما قذفوهم بما يحذِّرون به سفهاءهم من اتباعهم . وهو أنهم قد سُحروا ، حتى صاروا لا يعلمون مايقولون ، بمنزلة المجانين . ولهذا قال تعالى (١٧ :٤٨ انظر كيف ضربوا لك الأمثال ؟ فضلوا . فلا يستطيعون سبيلا) مَثَّلوك بالشاعر مرة ، والساحر أخرى ، والمجنون مرة ، والمسحور أخرى . فضلوا فى جميع ذلك ضلال مَنْ يطلب فى تِيهه وتَحُيِّره طريقاً يسلكه ، فلا يقدر عليه . فانه أىَّ طريق أخذها فهى طريق ضلال وحيرة . فهو متحير فى أمره ، لا يهتدى سبيلا ، ولا يقدر على سلوكها . فهكذا حال أعداء رسول الله صلى الله عليه وسلم معه ، حتى ضربوا له أمثالا ، بَرَّأه الله منها . وهو أبعد الله عنها . وقد علم كل عاقل أنها كذب وافتراءو بهتان.

وأما قولكم : إن سحر الأنبياء ينافى حماية الله لهم فإنه سبحانه كما يحميهم ويصونهم و يحفظهم و يتولاهم ، فيبتليهم بما شاء من أذى الكفار لهم ليستوجبوا كمال كرامته ، وليتسلى بهم من بعدهم من أممهم وخلفائهم إذا أوذوا من الناس ، فرأوا ماجرى على الرسل والأنبياء ، صبروا ورضوا ، وتأسَّوا بهم ، ولتمتلىء صاع الكفار فيستوجبون ماأُعدَّ لهم من النكال العاجل ، والعقوبة الآجلة، فيمحقهم بسبب بغيهم وعدوانهم ، فيعجل تطهير الأرض منهم . فهذا من بعض حكمته تعالى فى ابتلاء أنبيائه ورسله بإيذاء قومهم . وله الحكمة البالغة ، والنعمة السابغة لا إله غيره ، ولا رب سواه .

فصل

وقد دل قوله (من شر النفاثات فى العقد) وحديث عائشة المذكور على تأثير السحر ، وأن له حقيقة .

وقد أنكر ذلك طائفة من أهل الكلام من المعتزلة وغيرهم .

وقالوا : إنه لا تأثير للسحر البتة لا فى مرض ، ولا قتل ، ولا حَلّ ، ولا عقد .

قالوا : و إنما ذلك تخييل لأعين الناظرين ، لا حقيقة له سوى ذلك .

وهذا خلاف ماتواترت به الآثار عن الصحابة والسلف ،واتفق عليه الفقهاء ، وأهل التفسير والحديث . وما يعرفه عامة العقلاء .

والسحر الذى يؤثر مرضاً وثقلا وَعَقْداً وحُباً و بغضاً و نزيفاً وغير ذلك من الآثار موجود ، تعرفه عامة الناس . وكثير منهم قد علمه ذوقا بما أصيب به منه ، وقوله تعالى (ومن شر النفاثات فى العقد) دليل على أن هذا النفث يضر المسحور فى حال غيبته عنه ، ولو كان الضرر لا يحصل إلا بمباشرة البدن ظاهراً ، كما يقوله هؤلاء . لم يكن للنفث ولا للنفاثات شر يستعاذ منه[1] .

وأيضاً فإذا جاز على الساحر أن يسحر جميع أعين الناظرين مع كثرتهم حتى يروا الشيء بخلاف ماهو به ، مع أن هذا تغيير فى إحساسهم ، فما الذى يحيل تأثيره فى تغيير بعض أعراضهم وقواهم وطباعهم ؟ وما الفرق بين التغيير الواقع فى الرؤية والتغيير الواقع في صفة أخرى من صفات النفس والبدن ؟ فإذا غير إحساسه حتى صار يرى الساكن متحركا ، والمتصل منفصلا ، والميت حياً . فما المحيل لأن يغير صفات نفسه ، حتى يجعل المحبوب إليه بغيضاً ، والبغيض محبوباً ،

---

(١) بل النفث الذي يليق بعظمة بلاغة القرآن ، وفخامة أسلوبه : هو نفث المفسدين سمومهم : بالكذب والغيبة والنميمة وقالة السوء فى عقد الصلاة بين الناس ، حتى يفكوا عرى الزوجية والمودة والرحمة ، وغيرها . وشر وضرر هذا فى الناس أكثر جدا من شر من يقولون : إنهم سحرة . والله أعلم .

وغير ذلك من التأثيرات . وقد قال تعالى عن سَحَرَة فرعون إنهم (٧:١٥٥ سحروا أعين الناس واسترهبوهم وجاءوا بسحر عظيم) فبين سبحانه أن أعينهم سحرت . وذلك إما أن يكون لتغيير حصل فى المرئى ، وهو الحبال والعصىِّ ، مثل أن يكون السحرة استغاثت بأرواح حركتها ، وهى الشياطين . فظنوا أنها تحركت بأنفسها . وهذا كما إذا جرَّ من لا تراه حصيراً أو بساطاً فترى الحصير والبساط ينجر ، ولا ترى الجار له ، مع أنه هو الذى يجره ، فهكذا حال الحبال والعصى التبستها الشياطين ، فقلبتها كتقليب الحية . فظن الرائى أنها تقلبت بأنفسها ، والشياطين هم الذين يقلبونها . وإما أن يكون التغيير حدث فى الرائى . حتى رأى الحبال والعصى تتحرك ، وهى ساكنة فى أنفسها. ولا ريب أن الساحر يفعل هذا وهذا ، فتارة يتصرف فى نفس الرائي وإحساسه ، حتى يرى الشىء بخلاف ماهو به ، وتارة يتصرف فى المرئى باستغاثته بالأرواح الشيطانية حتى يتصرف فيها .

وأما مايقوله المنكرون : من أنهم فعلوا فى الحبال والعصى ماأوجب حركتها ومشيها ، مثل الزئبق وغيره ، حتى سَعَتْ . فهذا باطل من وجوه كثيرة . فإنه لو كان كذلك لم يكن هذا خيالا ، بل حركة حقيقية . ولم يكن ذلك سحراً لأعين الناس ، ولا يسمى ذلك سحراً ، بل صناعة من الصناعات المشتركة . وقد قال تعالى (٢٠ : ٦٦ فإذا حبالهم وعصيهم يُخَيَّلُ إليه من سحرهم أنها تسعى) ولو كانت تحركت بنوع حيلة — كما يقوله المنكرون — لم يكن هذا من السحر فى شىء . ومثل هذا لا يخفى .

وأيضاً لو كان ذلك بحيلة — كما قال هؤلاء — لكان طريق إبطالها إخراج مافيها من الزيبق . وبيان ذلك المحال ولم يحتج إلى إلقاء العصا لابتلاعها .

وأيضاً: فمثل هذه الحيلة لا يحتاج فيها إلى الاستعانة بالسحرة ، بل يكفى فيها حذاق الصناع . ولا يحتاج فى ذلك إلى تعظيم فرعون للسحرة ، وخضوعه لهم ، ووعدهم بالتقريب والجزاء .

وأيضاً : فإنه لا يقال فى ذلك (٢٠ : ٧١ ، ٢٦ : ٤٩ إنه لـكبيركم الذى علمـكم السحر) فإن الصناعات يشترك الناس فى تعلمها وتعليمها .

وبالجملة : فبطلان هذا أظهر من أن يتكلف رده [1] ، فلنرجع إلى المقصود .

فصـــــل

الشر الرابع : شر الحاسد إذا حسد . وقد دل القرآن والسنة على أن نفس حسد الحاسد يؤذى المحسود . فنفس حسده شر متصل بالمحسود من نفسه وعينه وإن لم يؤذه بيده ولا لسانه . فإن الله تعالى قال (ومن شر حاسد إذا حسد) فحقق الشر منه عند صدور الحسد . والقرآن ليس فيه لفظة مهملة .

ومعلوم أن الحاسد لا يسمى حاسداً إلا إذا قام به الحســد ، كالضارب ، والشاتم ، والقاتل ونحو ذلك . ولـكن قد يكون الرجل فى طبعه الحسد وهو غافل عن المحسود ، لاهٍ عنه ، فإذا خطر على ذكره وقلبه انبعثت نار الحسد من قلبه إليه ، وتوجهت إليه سهام الحسد من قبله . فيتأذى المحسود بمجرد ذلك . فإن لم

---

(١) بل إن جوابات الشيخ ـ غفر الله لنا وله ـ هي المتكلفة . وتدل على أنه لم يخبر صناعة المشعوذين والممخرقين . والقرآن صريح فى أن ما صنعه سحرة فرعون كان تخيلا ، لا حقيقة له فى الواقع ، وسحر الأعين فن ليس بدقيق كل الدقة ، ولاخفى كل الخفاء إلاعلى العامة وعلى من لم يدرسه و يعرف حيل أصحابه ، ولذلك كتب مؤلفة من قرأها عرف ذلك . أما كون شياطين الانس والجن يعاون بعضهم بعضا ، ويكون من ذلك أذى لبعض الناس فقد ذكر الله ذلك فى سورة الانعام . ولا شك فيه . كما يحصل من الانس وفجارهم أذي المؤمنين بأنواع الـكيد الخسيس والمـكر السيء . كما يفعله جماعات الارهاب والاغتيالات السرية الاجرامية وغيرها بالطرق الخفية التى قد تدخل فى تعريف السحر . أما أن يصل إلى إحداث بغض أو حب أو نزيف فى رحم المرأة . من غير أسباب ذلك . فهذا الذى يحتاج إلى دليل . وكل ماساق الشيخ وغيره من الأدلة : فلا ينهض حجة لذلك. والله أعلم .

يستعذ بالله و يتحصن به ، ويكون له أوراد من الأذكار والدعوات والتوجه إلى الله والإقبال عليه ، بحيث يدفع عنه من شره بمقدار توجهه و إقباله على الله ، و إلا ناله شر الحاسد ولا بد (١) .

فقوله تعالى (إذا حسد) بيان لأن شره إنما يتحقق إذا حصل منه الحسد بالفعل .

وقد تقدم فى حديث أبى سعيد الصحيح : رقية جبريل النبى صلى الله عليه وسلم وفيها « بسم الله أرقيك . من كل شيء يؤذيك ، من شر كل نفس، أو عين حاسد ، الله يشفيك » فهذا فيه الاستعاذة من شر عين الحاسد .

---

(١) أصل الحسد فى اللغة : بغض نعمة الله وتمنى زوالها عن المحسود ، أو تحولها إلى الحاسد . وهذا يكون من القلب الكافر بواسع فضل الله ، وبالغ حكمته ، ومحكم تدبيره ، وعظيم رحمته ، فيتولد من ذلك الضغن والحقد ، ثم الكيد والمكر السيء ؛ ويهيء بذلك للشيطان فرصة يدخل بها على الحاسد ، فيتولاه ويوحى إليه أخبث الكيدوأسوأ المكر ، ويؤزه إلى الشر والإفساد أزا ، ويتولى الحاسدويعاونه بتدبير أنواع الأذى للمحسود ليصل إلى ماتمناه من سلب نعمةالله عليه فاناستطاع أن يأخذها لنفسه ، وإلا شفى غيظ قلبه بزوالها . وما كانت الشرور فى العالم و الفساد فى الأرض إلا من هذا البغى والحسد ، للأنبياء ولأتباعهم ، ولكل من لله عليه نعمة . والله يحذرنا أشد التحذير من أن نعرض أنفسنا لمرض الحسد الخبيث . ووصف لنا أنواع العلاج بالتفكر فى آيات رحمته وقدرته وحكمته وسوابغ نعمه ؛ وأن كل خلقه وعطائه بالحق ، وأنه سبحانه ما يعطى إلا ابتلاء وفتنة ، كما حذرنا من شر الحاسد ، ودلنا على سبيل النجاة كذلك من شره بالأخذ بأسباب الوقاية ، وذلك بالإيمان بربوبيته الحكيمة ، وسننه التى لا تبديل لها ولا تحويل ، وبذلك العلم والإيمان بالله وأسمائه وصفاته ، يقوى العقل ، فيكون رشيداً حكيما ؛بعيداًعن الأوهام والخرافات، وتزكو النفس ، فتأخذ طريقها فى كل شئون الحياة الدينية والدنيوية على بينةوحكمة، وأبرز مافى الإنسان الذى تعرف به ما انطوت عليه نفسه من الحسد ونتائجه ، هو العين ، فان المتوسم يقرأ فيها ما يضمر العدو من كيد وشر ، فيحذره ويتقيه ، والعين كذلك فيك هى السفير الذى يأتيك بالخير أو الشر ، فاحفظ هذا السفير بإيمانك بالله الرقيب الحسيب تنج من الحسد السيء وكيد الحاسد بقوة الله .

ومعلوم أن عينه لا تؤثر بمجردها ، إذ لو نظر إليه نظر لاهٍ ساهٍ عنه ، كما ينظر إلى الأرض والجبل وغيره ، لم يؤثر فيه شيئاً ، وإنما إذا نظر إليه نظر مَنْ قد تَكَيَّفَت نفسُه الخبيثة وانسمَّت ، واحتدت فصارت نفساً غضبية خبيثة حاسدة أثرت بها تلك النظرة فأثرت فى المحسود تأثيراً بحسب صفة ضعفه ، وقوة نفس الحاسد . فربما أعطبه وأهلكه ، بمنزلة من فَوَّق سهماً نحو رجل عريان فأصاب منه مقتلاً وربما صرعه وأمرضه . والتجارب عند الخاصة والعامة بهذا أكثر من أن تذكر .

وهذه العين إنما تأثيرها بواسطة النفس الخبيثة . وهى فى ذلك بمنزلة الحيَّة التى إنما يؤثر سمها إذا عضَّت واحتدت (١) فإنها تتكيف بكيفية الغضب والخبث ، فتحدث فيها تلك الكيفية السمَّ ، فتؤثر فى اللديغ ، وربما قويت تلك الكيفية واشتدت فى نوع منها حتى تؤثر بمجرد نظرة . فتطمس البصر ، وتُسقط الحبل . كما ذكره النبى صلى الله عليه وسلم فى الأبتر ، وذى الطُّفيتين منها . فقال « اقتلوهما فإنهما يطمسان البصر ، ويستطان الحبل » فإذا كان هذا فى الحيات فما الظن فى النفوس الشريرة الغضبية الحاسدة ، إذا تكيفت بكيفيتها الغضبية ، وانسمت وتوجهت إلى المحسود بكيفيتها ؟ فلله كم من قتيل ؟ وكم من سليب ؟ وكم من معافى عاد مضنى على فراشه ، يقول طبيبه : لا أعلم داءه ماهو ؟ فصَدَق . ليس هذا الداء من علم الطبائع . هذا من علم الأروح وصفاتها . وكيفياتها ومعرفة تأثيراتها فى الأجسام والطبائع ، وانفعال الأجسام عنها .

وهذا علم لايعرفه إلا خواص الناس ، والمحجوبون منكرون له . ولا يعلم تأثير ذلك وارتباطه بالطبيعة وانفعالها عنه إلا من له نصيب من ذوقه . وهل الأجسام إلا كالخشب الملقى ؟ وهل الانفعال والتأثر ، وحدوث مايحدث عنها من الأفعال العجيبة ، والآثار الغريبة إلامن الأرواح ، والأجسام آلتها بمنزلة الصانع ؟ فالصنعة فى الحقيقة له ، والآلات وسائط فى وصول أثره إلى الصنع .

---

(١) قياس مع الفارق البعيد . فإن الحية توصل السم فى موضع ما جرح نابها

ومن له أدنى فطنة وتأمل لأحوال العالم وقد لطفت روحه ، وشاهدت أحوال الأرواح وتأثيراتها ، وتحريكها الأجسام وانفعالها عنها . وكل ذلك بتقدير العزيز العليم ، خالق الأسباب والمسببات — رأى عجائب فى الـكون ، وآيات دالة على وحدانية الله ، وعظمة ربوبيته ، وأن ثم عالما آخر تجرى عليه أحكام أخر ، تشهد آثارها . وأسبابها غيبٌ عن الأبصار .

فتبارك الله رب العالمين . وأحسن الخالقين الذى أتقن ماصنع ، وأحسن كل شىء خلقه .

ولا نسبة لعالم الأجسام إلى عالم الأرواح ، بل هو أعظم وأوسع ، وعجائبه أبهر وآياته أعجب .

وتأمل هذا الهيكل الإنسانى إذا فارقته الروح ، كيف يصير بمنزلة الخشبة أو القطعة من اللحم ؟ فأين ذهبت تلك العلوم والمعارف والعقل ، وتلك الصنائع الغريبة ، وتلك الأفعال العجيبة ، وتلك الأفكار والتدبيرات ؟ كيف ذهبت كلها مع الروح ، وبقى الهيكل سواء هو والتراب ؟ وهل يخاطبك من الإنسان أو يراك أو يحبك أو يواليك ، أو يعاديك ، ويخفَّ عليك أو يثقل ،ويؤنسك أو يوحشك إلا ذلك الأمر الذى هو وراء الهيكل المشاهَد بالبصر ؟

فرب رجل عظيم الهيولَى كبير الجثة . خفيفٌ على قلبك ، حلو عندك . وآخر لطيف الخلقة ، صغير الجثة ، أثقل على قلبك من جبل . وما ذاك إلا للطافة روح ذاك وخفتها وحلاوتها ، وكثافة هذا وغلظ روحه ومرارتها .

وبالجملة : فالعُلَق والوُصَل التى بين الأشخاص والمنافرات والبعد : إنما هى للأرواح أصلا والأشباح تبعا .

فصـــــل

والعاين والحاسد يشتركان فى شىء ، ويفترقان فى شىء.

فيشتركان فى أن كل واحد منهما تتكيف نفسه ، وتتوجه نحو من يريد أذاه .

فالعائن : تتكيف نفسه عند مقابلة المعين ومعاينته .

والحاسد : يحصل له ذلك عند غيبة المحسود وحضوره أيضا .

ويفترقان فى أن العائن قد يصيب من لايحسده ، من جماد أو حيوان ، أو زرع أو مال ، وإن كان لايكاد ينفك من حسد صاحبه . وربما أصابت عينه نفسه . فإن رؤيته للشىء رؤية تعجب وتحديق ، مع تكيف نفسه بتلك الكيفية : تؤثر فى المعين .

وقد قال غير واحد من المفسرين فى قوله تعالى (٥٨ : ٥١ وإن يكاد الذين كفروا لَيُزْلقونك بأبصارهم لما سمعوا الذكر) : إنه الاصابة بالعين . أرادوا أن يصيبوا بها رسول الله صلى الله عليه وسلم . فنظر إليه قوم من العائنين ، وقالوا : ما رأينا مثله ، ولا مثل حجته . وكان طائفة منهم تمر به الناقة والبقرة السمينة فيَعينها ، ثم يقول لخادمه : خذ المِكْتَل والدرهم وائتنا بشىء من لحمها . فما تبرح حتى تقع . فتنحر .

وقال الكلبى : كان رجل من العرب يمكث يومين أو ثلاثة لا يأكل ، ثم يرفع جانب خبائه ، فتمر به الإبل ، فيقول : لم أر كاليوم إبلاً ولا غنما أحسن من هذه . فما تذهب إلا قليلا حتى يسقط منها طائفة . فسأل الكفار هذا الرجل أن يصيبَ رسول الله صلى الله عليه وسلم بالعين ، ويفعل به كفعله فى غيره . فعصم الله رسوله وحفظه . وأنزل عليه (وإن يكاد الذين كفروا ليزلقونك بأبصارهم) هذا قول طائفة .

وقالت طائفة أخرى ، منهم ابن قتيبة : ليس المراد : أنهم يصيبونك بالعين ،

كما يصيب العائن بعينه ما يعجبه. وإنما أراد: أنهم ينظرون إليك إذا قرأت القرآن نظراً شديداً بالعداوة والبغضاء، يكاد يُسقطك. قال الزجاج: يعني من شدة العداوة يكادون بنظرهم نظر البغضاء أن يَصْرعوك. وهذا مستعمل فى الكلام. يقول القائل: نظر إليَّ نظراً كاد يصرعني.

قال: ويدل على صحة هذا المعنى: أنه قرن هذا النظر بسماع القرآن، وهم كانوا يكرهون ذلك أشَدَّ الكراهية، فيُحِدُّون إليه النظر بالبغضاء (١)

قلت: النظر الذى يؤثر فى المنظور: قد يكون سببه شدة العداوة والحسد فيؤثر نظره فيه، كما تؤثر نفسه بالحسد، ويقوى تأثير النفس عند المقابلة. فإن العدو إذا غاب عن عدوه فقد يشغل نفسه عنه. فإذا عاينه قُبُلاً اجتمعت الهمة عليه، وتوجهت النفس بكليتها إليه. فيتأثر بنظره، حتى إن من الناس من يسقط، ومنهم من يُحَمُّ، ومنهم من يحمل إلى بيته. وقد شاهد الناس من ذلك كثيرا.

وقد يكون سببه الإعجاب. وهو الذى يسمونه: بإصابة العين. وهو أن الناظر يرى الشيء رؤية إعجاب به أو استعظام، فتتكيف روحه بكيفية خاصة تؤثر في المعين. وهذا هو الذى يعرفه الناس من رؤية المعين. فإنهم يستحسنون الشيء ويعجبون منه، فيصاب بذلك.

قال عبد الرزاق: عن معمر عن هشام بن قتيبة قال: هذا ما حدثنا أبو هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «العين حق. ونهى عن الوَشْم»

وروى سفيان عن عمرو بن دينار عن عروة عن عامر عن عبيد بن رفاعة «أن أسماء بنت عُميس قالت: يا رسول الله، إن بنى جعفر تصيبهم العين، أفنَسْتَرقى لهم؟ قال: نعم. فلو كان شيء يسبق القضاء لسبقته العين (٢)»

---

(١) وهذا المعنى هو الأليق بالآية. بل هو الذى لا يناسبها غيره.

(٢) ما درجة هذه الأحاديث من الصحة؟ فليس كل ما قيل حديثا يكون حديثا

فالـكفار كانوا ينظرون إليه نظر حاسد شديد العداوة . فهو نظر يكاد يزلقه لولا حفظ الله وعصمته . فهذا أشد من نظر العائن ، بل هو جنس من نظر العائن فمن قال : إنه من الإصابة بالعين أراد : هذا المعنى . ومن قال : ليس به . أراد : أن نظرهم لم يكن نظر استحسان و إعجاب . فالقرآن حق .

وقد روى الترمذى من حديث أبى سعيد « أن النبى صلى الله عليه وسلم كان يتعوذ من عين الإنسان » فلولا أن العين شر لم يتعوذ منها .

وفى الترمذى من حديث على بن المبارك عن يحيى بن أبى كثير حدثنى حابس بن حبة التميمى حدثنى أبى : أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « لاشىء فى الهام . والعين حق» .

وفيه أيضاً من حديث وهيب عن ابن طاوس عن أبيه عن ابن عباس قال « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول:لو كان شىء سابق القدر لسبقته العين، و إذا اسْتُغْسِلْتم فاغسلوا » وفى الباب عن عبد الله بن عمرو . وهذا حديث صحيح

والمقصود : أن العائن حاسد خاص . وهو أضر من الحاسد . ولهذا ـ والله أعلم ـ إنما جاء فى السورة ذكر الحاسد دون العائن . لأنه أعم . فـكل عائن حاسد ولا بد . وليس كل حاسد عائنا . فإذا استعاذ من شر الحاسد دخل فيه العائن . وهذا من شمول القرآن و إعجازه و بلاغته .

وأصل الحسد : هو بغض نعمة الله على المحسود ، وتمنى زوالها .

فالحاسد عدو النعم . وهذا الشر هو من نفسه وطبعهـا . ليس هو شيئاً ا كتسبه من غيرها ، بل هو من خبثها وشرها ، بخلاف السحر . فإنه إنما يكون با كتساب أمور أخرى ، واستعانة بالأرواح الشيطانية . فلهذا ـ والله أعلم ـ قرن فى السورة بين شر الحاسد وشر الساحر . لأن الاستعاذة من شر هذين تعم كل شر يأتى من شياطين الإنس والجن . فالحسد من شياطين الإنس والجن ،والسحر من النوعين .

وبقى قسم ينفرد به شياطين الجن ، وهو الوسوسة فى القلب . فذكره فى السورة الأخرى ، كما سيأتى الكلام عليها إن شاء الله . فالحاسد والساحر يؤذيان المحسود والمسحور بلا عمل منه . يل هو أذى من أمر خارج عنه . ففرق بينهما فى الذكر فى سورة الفلق .

والوسواس إنما يؤذى العبد من داخل بواسطة مساكنته له ، وقبوله منه . ولهذا يعاقب العبد على الشر الذى يؤذيه به الشيطان من الوساوس التى تقترن بها الأفعال ، والعزم الجازم . لأن ذلك بسعيه وإرادته ، بخلاف شر الحاسد والساحر فإنه لا يعاقب عليه . إذ لا يضاف إلى كسبه ولا إرادته . فلهذا أفرد شر الشيطان فى سورة ، وقرن بين شر الساحر والحاسد فى سورة . وكثيرا ما يجتمع فى القرآن الحسد والسحر للمناسبة . ولهذا كان اليهود أسحر الناس وأحسدهم . فإنهم لشدة خبثهم : فيهم من السحر والحسد ماليس فى غيرهم . وقد وصفهم الله فى كتابه بهذا وهذا . فقال (٢ : ١٠٢ واتبعوا ما تتلوا الشياطين على ملك سليمان . وما كفر سليمان ، ولكن الشياطين كفروا ، يعلمون الناس السحر . وما أنزل على الملكين ببابل هاروت وماروت . وما يعلمان من أحد حتى يقولا : إنما نحن فتنة ، فلا تكفر . فيتعلمون منهما ما يفرقون به بين المرء وزوجه . وماهم بضارين به من أحد إلا بإذن الله ، ويتعلمون مايضرهم ولا ينفعهم . ولقد علموا لَمَن اشتراه ماله فى الآخرة من خَلاق ، ولبئسما شروا به أنفسهم لو كانوا يعلمون)

والكلام على أسرار هذه الآية وأحكامها وما تضمنته من القواعد والرد على من أنكر السحر ، وما تضمنته من الفرقان بين السحر وبين المعجزات الذى أنكره من أنكر السحر خشية الالتباس . وقد تضمنت الآية أعظم الفرقان بينهما — فى موضع غير هذا .

إذ المقصود الكلام على أسرار هاتين السورتين وشدة حاجة الخلق إليهما ، وأنه لا يقوم غيرهما مقامهما .

وأما وصفهم بالحسد فكثير فى القرآن . كقوله تعالى (٤ : ٥٥ أم يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله) وفى قوله (٢ : ١٠٩ وَدَّ كثير من أهل الكتاب لو يردونكم من بعد إيمانكم كفاراً حسداً من عند أنفسهم من بعد ما تبين لهم الحق)

والشيطان يقارن الساحر والحاسد ، ويحادثهما ويصاحبهما . ولكن الحاسد تعينه الشياطين بلا استدعاء منه للشيطان . لأن الحاسد شبيه بإبليس ، وهو فى الحقيقة من أتباعه . لأنه يطلب ما يحبه الشيطان من فساد الناس ، وزوال نعم الله عنهم ، كما أن إبليس حسد آدم لشرفه وفضله ، وأبى أن يسجد له حسداً . فالحاسد من جند إبليس . وأما الساحر فهو يطلب من الشيطان أن يعينه ويستعينه . وربما يعبده من دون الله ، حتى يقضى له حاجته ، وربما يسجد له .

وفى كتب السحر والسر المكتوم من هذا عجائب . ولهذا كلما كان الساحر أكفر وأخبث وأشد معاداة لله ولرسوله ولعباده المؤمنين كان سحره أقوى وأنفذ . وكان سحر عباد الأصنام أقوى من أهل سحر الكتاب ، وسحر اليهود أقوى من سحر المنتسبين إلى الإسلام . وهم الذين سحروا رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وفى الموطأ عن كعب قال « كلمات أحفظهن من التوراة ، لولاها لجعلتنى يهود حماراً : أعوذ بوجه الله العظيم ، الذى لا شىء أعظم منه ، وبكلمات الله التامات التى لا يجاوزهن بر ولا فاجر ، وبأسماء الله الحسنى ، ماعلمت منها ومالم أعلم : من شر ما خلق ، وذرأ ، وبرأ » .

والمقصود : أن الساحر والحاسد كل منهما قصده الشر ، لكن الحاسد بطبعه ونفسه وبغضه للمحسود ، والشيطان يقترن به ويعينه ، ويزين له حسده ، ويأمره بموجبه . والساحر بعلمه ، وكسبه ، وشركه ، واستعانته بالشياطين .

فصـــل

وقوله (ومن شر حاسد إذا حسد) يعم الحاسد من الجن والإنس . فإن الشيطان وحزبه يحسدون المؤمنين على ما آتاهم الله من فضله . كما حسد إبليس أبانا آدم ، وهو عدو لذريته ، كما قال تعالى (٣٥ : ٦ إن الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدواً) ولـكن الوسواس أخص بشياطين الجن ، والحسد أخص بشياطين الإنس . والوسواس يعمهما ، كما سيأتى بيانهما . والحسد يعمهما أيضاً . فـكلا الشيطانين حاسد موسوس . فالاستعاذة من شر الحاسد تتناولهما جميعاً .

فقد اشتملت السورة على الاستعاذة من كل شر فى العالم .

وتضمنت شروراً أربعة يستعاذ منها : شراً عاما . وهو شر ما خلق . وشر الغاسق إذا وقب . فهذان نوعان .

ثم ذكر شر الساحر والحاسد ، وهما نوعان أيضاً . لأنهما من شر النفس الشريرة . وأحدهما يستعين بالشيطان ويعبده ، وهو الساحر . وقَلَّما يتأتى السحر بدون نوع عبادة للشيطان ، وتقرب إليه : إما بذبح باسمه ، أو بذبح يقصد به هو ، فيكون ذبحاً لغير الله ، وبغير ذلك من أنواع الشرك والفسوق .

والساحر وإن لم يسم هذا عبادة للشيطان . فهو عبادة له ، وإن سماه بما سماه به . فإن الشرك والـكفر هو شرك وكفر لحقيقته ومعناه ، لا لاسمه ولفظه . فمن سجد لمخلوق ، وقال : ليس هذا بسجود له ، هـذا خضوع وتقبيل الأرض بالجبهة ، كما أُقبِّلها بالنعم ، أو هذا إكرام : لم يخرج بهذه الألفاظ عن كونه سجود لغير الله فليسمه بما يشاء .

وكذلك من ذبح للشيطان ودعاه واستعاذ به ، وتقرب إليـه بما يحب . فقد عبده ، وإن لم يسم ذلك عبادة ، بل يسميه استخداماً ، وصدق . هو استخدام من الشيطان له . فيصير من خدم الشيطان وعابديه . وبذلك يخدمه الشيطان ،

لـكن خدمة الشيطان له ليست خدمة عبادة . فإن الشيطان لا يخضع له ولا يعبده ، كما يفعل هو به .

والمقصود : أن هذا عبادة منه للشيطان . وإنما سماه استخداماً . قال تعالى (٣٦ : ٦٠ ألم أعهد إليكم يا بنى آدم أن لا تعبدوا الشيطان ؟ إنه لكم عدو مبين) وقال تعالى (٣٤ : ٤٠ ، ٤١ ويوم يحشرهم جميعاً ثم يقول للملائكة : أهؤلاء إياكم كانوا يعبدون ؟ قالوا : سبحانك ، أنت ولينا من دونهم، بل كانوا يعبدون الجن ، أكثرهم بهم مؤمنون)

فهؤلاء وأشباههم عباد الجن والشياطين . وهم أولياؤهم فى الدنيا والآخرة . ولبئس المولى ، ولبئس العشير . فهذا أحد النوعين .

والنوع الثانى : من يعينه الشيطان ، وإن لم يستعن هو به . وهو الحاسد . لأنه نائبه وخليفته . لأن كليهما عدو نعم الله ، ومنغصها على عباده .

فصـــــل

وتأمل تقييده سبحانه شر الحاسد بقوله « إذا حسد » لأن الرجل قد يكون عنده حسد ، ولـكن يخفيه ، ولا يرتب عليه أذى بوجه ما ، لا بقلبه ، ولا بلسانه ، ولا بيده ، بل يجد فى قلبه شيئاً من ذلك ولا يعامل أخاه إلا بما يحب الله . فهذا لا يكاد يخلو منه أحد إلا من عصمه الله .

وقيل للحسن البصرى : أيحسد المؤمن ؟ قال : ما أنساك لإخوة يوسف .

لـكن الفرق بين القوة التى فى قلبه من ذلك وهو لا يطيعها ولا يأتمر بها ، بل يعصيها طاعة لله وخوفا وحياء منه ، وإجلالا له . أن يكره نعمه على عباده ، فيرى ذلك مخالفة لله وبغضاً لما يحب الله ، ومحبة لما يبغضه . فهو يجاهد نفسه على دفع ذلك ، ويلزمها بالدعاء للمحسود ، وتمنى زيادة الخير له ، بخلاف ما إذا حقق

ذلك وحسده ، ورتب على حسده مقتضاه : من الأذى بالقلب ، واللسان والجوارح فهذا الحسد المذموم . هذا كله حسد تمنى الزوال .

وللحسد ثلاث مراتب : إحداها هذه .

والثانية : تمنى استصحاب عدم النعمة . فهو يكره أن يُحدث الله لعبده نعمة ، بل يحب أن يبقى على حاله من جهله ، أو فقره ، أو ضعفه ، أو شتات قلبه عن الله ، أو قلة دينه . فهو يتمنى دوام ما هو فيه من نقص وعيب . فهذا حسد على شىء مقدر . والأول حسد على شىء محقق . وكلاهما حاسد ، عدو نعمة الله ، وعدو عباده ، وممقوت عند الله تعالى ، وعند الناس . ولا يسود أبداً ، ولا يواسَى فإن الناس لا يُسَوِّدون عليهم إلا من يريد الإحسان إليهم . فأما عدو نعمة الله عليهم فلا يُسَوِّدونه باختيارهم أبداً إلا قهراً يعدونه من البلاء والمصائب التى ابتلاهم الله بها . فهم يبغضونه وهو يبغضهم .

والحسد الثالث : حسد الغبطة ، وهو تمنى أن يكون له مثل حال المحسود من غير أن تزول النعمة عنه . فهذا لا بأس به ، ولا يعاب صاحبه ، بل هذا قريب من المنافسة . وقد قال تعالى (٨٣ : ٢٦ وفى ذلك فليتنافس المتنافسون) وفى الصحيح عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال « لا حسد إلا فى اثنتين : رجل آتاه الله مالا ، وسلطه على هلكته فى الحق . ورجل آتاه الله الحكمة . فهو يقضى بها ويعلمها الناس » فهذا حسد غبطة ، الحامل لصاحبه عليه كِبَرَ نفسه ، وحب خصال الخير ، والتشبه بأهلها ، والدخول فى جملتهم ، وأن يكون من سُبَّاقهم وعِلْيتهم ومُصَلِّيهم لا من فساكلهم (١) فتحدث له من هذه الهمة المنافسة والمسابقة

---

(١) الفسكل — بوزن قنفذ . وزبرج — الفرس الذى يجىء فى حلبة السباق آخر الخيل . والمصلي : الذى يجىء منها تلو السابق .

والمسارعة ، مع محبته لمن يغبطه ، وتمنى دوام نعمة الله عليه . فهذا لا يدخل فى الآية بوجه ما .

فهذه السورة من أكبر أدوية الحسد . فإنها تتضمن التوكل على الله ، والالتجاء إليه ، والاستعاذة به من شر حاسد النعمة . فهو مستعيذ بولى النعم ومولیها . كأنه يقول : يا من أولانى نعمته وأسداها إلىَّ أنا عائذ بك من شر من يريد أن يستلبها منى ، ويزيلها عنى . وهو حَسْب من توكل عليه ، وكافى من لجأ إليه ، وهو الذى يؤمن خوف الخائف ، ويجير المستعير . وهو نعم المولى ونعم النصير . فمن تولاه واستنصر به ، وتوكل عليه وانقطع بكليته إليه ، تولاه وحفظه وحرسه وصانه . ومن خافه واتقاه أمّنه مما يخاف ويحذر . وجلب إليه كل ما يحتاج إليه من المنافع (٦٥ : ٢ ، ٣ ومن يتق الله يجعل له مخرجاً ويرزقه من حيث لا يحتسب . ومن يتوكل على الله فهو حسبه) فلا تستبطىء نصره ورزقه وعافيته . فإن الله بالغُ أمره . وقد جعل الله لـكل شىء قدراً . لا يتقدم عنه ولا يتأخر . ومن لم يَخَفه أخافه من كل شىء ، وما خاف أحد غير الله إلا لنقص خوفه من الله . قال تعالى (١٦ : ٩٨ ، ٩٩ فإذا قرأت القرآن فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم . إنه ليس له سلطان على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون . إنما سلطانه على الذين يتولونه والذين هم به مشركون) وقال (٣ : ١٧٥ إنما ذلـكم الشيطان يخوف أولياءه . فلا تخافوهم ، وخافون إن كنتم مؤمنين) أى يخوفكم بأوليائه ، ويعظمهم فى صدوركم . فلا تخافوهم ، وأفردونى بالمخافة أكفِكم إياهم .

فصــــل

وينـدفع شر الحاسد عن المحسود بعشرة أسباب .

أحدها : التعوذ بالله من شره ، والتحصن به واللجأ إليه . وهو المقصود بهذه السورة ، والله تعالى سميع لاستعاذته ، عليم بما يستعيذ منه ، والسمع هنا المراد به :

سمع الإجابة ، لا السمع العام . فهو مثل قوله « سمع الله لمن حمده » وقول الخليل صلى الله عليه وسلم (١٤ :٣٩ إن ربى لسميع الدعاء) ومرة يقرنه بالعلم ، ومرة بالبصر ، لاقتضاء حال المستعيذ ذلك . فإنه يستعيذ به من عدو يعلم أن الله يراه ، ويعلم كيده وشره . فأخبر الله تعالى هذا المستعيذ أنه سميع لاستعاذته ، أى مجيب ، عليم بكيد عدوه ، يراه ويبصره ، لينبسط أمل المستعيذ ، ويقبل بقلبه على الدعاء

وتأمل حكمة القرآن ، كيف جاء فى الاستعاذة من الشيطان الذى نعلم وجوده ولا نراه بلفظ « السميع العليم » فى الأعراف وحم السجدة . وجاءت الاستعاذة من شر الإنس الذين يُؤنَسون ويُرون بالأبصار بلفظ « السميع البصير » فى سورة حم المؤمن . فقال (٤٠ : ٥٦ إن الذين يجادلون فى آيات الله بغير سلطان أتاهم ، إنْ فى صدورهم إلا كِبْرٌ ما هم ببالغيه ، فاستعذ بالله إنه هو السميع البصير) لأن أفعال هؤلاء أفعال معايَنَـة تُرى بالبصر . وأما نزغ الشيطان فوساوس ، وخطرات يلقيها فى القلب ، يتعلق بهـا العلم . فأمر بالاستعاذة بالسميع العليم فيها . وأمر بالاستعاذة بالسميع البصير فى باب ما يُرى بالبصر ، ويُدرك بالرؤية . والله أعلم .

السبب الثاني : تقوى الله ، وحفظه عند أمره ونهيه . فمن اتقى الله تولّى الله حفظه ، ولم يَـكِلْه إلى غيره . قال تعالى (٣:١٢١ وإن تصبروا وتتقوا لا يضركم كيدهم شيئاً) وقال النبى صلى الله عليه وسـلم لعبد الله بن عباس « احفظ الله يحفظك ، احفظ الله تجده تجاهك » فمن حفظ الله حفظه الله ، ووجده أمامه أينما توجه . ومن كان الله حافظه وأمامه فممن يخاف ؟ ومن يحذر ؟

السبب الثالث : الصبر على عدوه ، وأن لا يقاتله ولا يشـكوه ، ولا يحدث نفسه بأذاه أصلا . فما نُصر على حاسده وعدوه بمثل الصبر عليه ، والتوكل على الله ولا يستطل تأخيره وبغيه . فإنه كلما بغى عليه كان بغيه جنداً وقوة للمبغى عليـه المحسود ، يقاتل به الباغى نفسه . وهو لا يشعر . فبغيه سهام يرميها من نفسه إلى نفسه . ولو رأى المبغى عليه ذلك لسَرَّه بغيه عليه . ولـكن لضعف بصيرته لا يرى

إلا صورة البغى ، دون آخره ومآله . وقد قال تعالى (٢٢ : ٦٠ ومن عاقب بمثل ما عُوقب به ثم بُغى عليه لينصرنه الله) فإذا كان الله قد ضمن له النصر ، مع أنه قد استوفى حقه أولا ، فكيف بمن لم يستوف شيئاً من حقه ، بل بُغى عليه وهو صابر ؟ وما من الذنوب ذنب أسرع عقوبة من البغى وقطيعة الرحم . وقد سبقت سنة الله : أنه لو بغى جبل على جبل لجعل الباغى منهما دَكاً.

السبب الرابع : التوكل على الله . فمن يتوكل على الله فهو حسبه . والتوكل من أقوى الأسباب التى يدفع بهـا العبد مالا يطيق من أذى الخلق وظلمهم وعدوانهم . وهو من أقوى الأسباب فى ذلك . فإن الله حسبه ، أى كافيه . ومن كان الله كافيه وواقيه فلا مطمع فيه لعدوه ، ولا يضره إلا أذى لابد منه ، كالحر والبرد ، والجوع والعطش ، وإما أن يضره بما يبلغ منه مراده فلا يكون أبداً .

وفرق بين الأذى الذى هو فى الظاهر إيذاء له ، وهو فى الحقيقة إحسان إليه وإضرار بنفسه ، وبين الضرر الذى يتشفى به منه . قال بعض السلف : جعل الله لـكل عمل جزاء من جنسه ، وجعل جزاء التوكل عليه نفس كفايته لعبده ، فقال (٦٥ : ٣ ومن يتوكل على الله فهو حسبه) ولم يقل : نؤته كذا وكذا من الأجر كما قال فى الأعمال ، بل جعل نفسه سبحانه كافى عبده المتوكل عليه وحسبه ، وواقيه ، فلو توكل العبد على الله حق توكله وكادته السموات والأرض ومن فيهن لجعل له ربه مخرجا من ذلك ، وكفاه ونصره

وقد ذكرنا حقيقة التوكل وفوائده ، وعظم منفعته ، وشدة حاجة العبد إليه فى « كتاب الفتح القدسى » وذكرنا هناك فساد من جعله من المقامات المعلولة ، وأنه من مقامات العوام . وأبطلنا قوله من وجوه كثيرة . وبينا أنه من أجلِّ مقامات العارفين ، وأنه كلما علا مقام العبد كانت حاجته إلى التوكل أعظم وأشد ، وأنه على قدر إيمان العبد يكون توكله .

وإنما المقصود هنا ذكر الأسباب التى يندفع بها شر الحاسد ، والعائن ، والساحر ، والباغى

السبب الخامس : فراغ القلب من الاشتغال به والفكر فيه ، وأن يقصد أن يمحوه من باله كلما خطر له . فلا يلتفت إليه ، ولا يخافه ، ولا يملأ قلبه بالفكر فيه وهذا من أنفع الأدوية ، وأقوى الأسباب المعينة على اندفاع شره . فان هذا بمنزلة من يطلبه عدوه ليمسكه و يؤذيه ، فاذا لم يتعرض له ولا تماسك هو و إياه ، بل انعزل عنه لم يقدر عليه . فاذا تماسكا وتعلق كل منهما بصاحبه ، حصل الشر وهكذا الأرواح سواء . فاذا علق روحه وشَبَّثها به ، وروح الحاسد الباغى متعلقة به يقظة ومناما ، لايفتر عنه، وهو يتمنى أن يتماسك الروحان و يتشبثا . فاذا تعلقت كل روح منهما بالأخرى عدم القرار . ودام الشر ، حتى يهلك أحدهما . فاذا جَبَذ روحه منه ، وصانها عن الفكر فيه والتعلق به ، وأن لايخطره بباله . فاذا خطر بباله بادر إلى محو ذلك الخاطر ، والاشتغال بما هو أنفع له وأولى به . بقى الحاسد الباغى يأ كل بعضه بعضاً . فان الحسد كالنار ، فاذا لم تجد ما تأ كله أ كل بعضها بعضا

وهذا باب عظيم النفع لايُلَقَّاه إلا أصحاب النفوس الشريفة والهمم العلية ، و بين الكيس الفطن و بينه حتى يذوق حلاوته وطيبه ونعيمه كأنه يرى من أعظم عذاب القلب والروح اشتغاله بعدوه ، وتعلق روحه به ، ولا يرى شيئاً آلم لروحه من ذلك ، ولا يصدق بهذا إلا النفوس المطمئنة الوادعة اللينة ، التى رضيت بوكالة الله لها ، وعلمت أن نصره لها خير من انتصارها هى لنفسها . فوثقت بالله ، وسكنت إليه ، واطمأنت به ، وعلمت أن ضمانه حق ، ووعده صدق ، وأنه لا أوفى بعهده من الله ، ولا أصدق منه قيلا . فعلمت أن نصره لها أقوى وأثبت وأدوم ، وأعظم فائدة من نصرها هى لنفسها ، أو نصر مخلوق مثلها لها ، ولا يقوى على هذا إلا بالسبب السادس :

وهو الاقبال على الله ، والاخلاص له ، وجعل محبته ورضاه والانابة إليه فى محل خواطر نفسه ، وأمانيها تدب فيها دبيب تلك الخواطر شيئاً فشيئاً ، حتى

يقهرها ويغمرها ويذهبها بالكلية . فتبقى خواطره وهواجسه وأمانيه كلها فى محاب الرب ، والتقرب اليه وتملقه وترضيه ، واستعطافه وذكره ، كما يذكر المحب التام المحبة محبوبه المحسن إليه الذى قد امتلأت جوانحه من حبه . فلا يستطيع قلبه انصرافاً عن ذكره ، ولا روحه انصرافاً عن محبته . فاذا صار كذلك فكيف يرضى لنفسه أن يجعل بيت أفكاره وقلبه معمورا بالفكر فى حاسده والباغى عليه ، والطريق إلى الانتقام منه ، والتدبير عليه ؟ هذا مالا يتسع له إلا قلب خراب لم تسكن فيه محبة الله وإجلاله ، وطلب مرضاته . بل إذا مَسَّهُ طَيْف من ذلك واجتاز ببابه من خارج ، ناداه حرس قلبه : إياك وحِمَى الملك . اذهب إلى بيوت الخانات التى كل من جاء حَلَّ فيها ، ونزل بها . مالَكَ ولبيتِ السلطان الذى أقام عليه اليَزَك وأدار عليه الحرس ، وأحاطه بالسور ، قال تعالى حكاية عن عدوه إبليس : أنه قال (٣٨ : ٨٢ ، ٨٣ فبعزتك لأغوينهم أجمعين ، إلا عبادك منهم المخلصين) فقال تعالى (١٥ : ٤٢ إن عبادى ليس لك عليهم سلطان) وقال (١٦ : ٩٩ إنه ليس له سلطان على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون إنما سلطانه على الذين يتولونه والذين هم به مشركون) وقال فى حق الصديق يوسف صلى الله عليه وسلم (١٢ : ٢٤ كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء إنه من عبادنا المخلصين)

فما أعظم سعادة من دخل هذا الحصن ، وصار داخل اليَزَك ، لقد آوى إلى حصن لاخوف على من تحصَّن به . ولا ضيعة على من آوى إليه ، ولا مطمع للعدو فى الدنو اليه منه (وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم)

السبب السابع : تجريد التوبة إلى الله من الذنوب التى سلطت عليه أعداءه . فإن الله تعالى يقول (٤٢:٣٠وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم) وقال لخير الخلق ، وهم أصحاب نبيه دونه صلى الله عليه وسلم (٣ : ١٦٥ أولما أصابتكم مصيبة قد أصبتم مثليها قلتم : أنَّى هذا ؟ قل هو من عند أنفسكم)

فما سلط على العبد من يؤذيه إلا بذنب يعلمه أو لا يعلمه ، وما لا يعلمه العبد من ذنوبه أضعاف مايعلمه منها . وما ينساه مما عمله أضعاف ما يذكره .

وفى الدعاء المشهور « اللهم إنى أعوذ بك أن أشرك بك وأنا أعلم . واستغفرك لما لا أعلم)

فما يحتاج العبد إلى الاستغفار منه مما لا يعلمه أضعاف أضعاف مايعلمه . فما سلط عليه مؤذ إلا بذنب .

ولقى بعض السلف رجل فأغلظ له ونال منه ، فقال له : قف حتى أدخل البيت ، ثم أخرج إليك · فدخل فسجد لله وتضرع إليه وتاب ، وأناب إلى ربه . ثم خرج إليه فقال له : ماصنعت ؟ فقال : تبت إلى الله من الذنب الذى سلطك به علىّ .

وسنذكر إن شاء الله تعالى أنه ليس فى الوجود شر إلا الذنوب وموجباتها . فإذا عوفى العبد من الذنوب عوفى مس موجباتها . فليس للعبد إذا بغى عليه وأوذى وتسلط عليه خصومه شىء أنفع له من التوبة النصوح .

وعلامة سعادته : أن يعكس فكره ونظره على نفسه وذنوبه وعيوبه ، فيشتغل بها و باصلاحها و بالتوبة منها . فلا يبقى فيه فراغ لتدبر مانزل به ، بل يتولى هو التوبة و إصلاح عيوبه . والله يتولى نصرته وحفظه ، والدفع عنه ولا بد . فما أسعده من عبد ، وما أبركها من نازلة نزلت به . وما أحسن أثرها عليه ، ولكن التوفيق والرشد بيدا الله . لامانع لما أعطى ، ولا معطى لما منع . فما كل أحد يوفق لهذا . لا معرفة به ، ولا إرادة له ، ولا قدرة عليه ، ولا حول ولا قوة إلا بالله .

السبب الثامن : الصدقة والاحسان ما أمكنه . فإن لذلك تأثيرا عجيبا فى دفع البلاء ، ودفع العين ، وشر الحاسد . ولو لم يكن فى هذا إلا بتجارب الأمم قديما وحديثاً لكفى به . فما تكاد العين والحسد والأذى يتسلط على محسن متصدق ، وإن أصابه شىء من ذلك كان معاملا فيه باللطف والمعونة والتأييد . وكانت له فيه العاقبة الحميدة .

فالمحسن المتصدق فى خفارة إحسانه وصدقته ، عليـه من الله جُنَّة واقية ، وحصن حصين .

و بالجملة : فالشكر حارس النعمة من كل مايكون سببا لزوالها .

ومن أقوى الأسباب : حسد الحاسد والعائن . فإنه لايفتر ولا ينى ، ولا يبرد قلبه حتى تزول النعمة عن المحسود. فحينئذ يبرد أنينه ، وتنطفىء ناره ، لا أطفأها الله . فما حرس العبد نعمة الله عليه بمثل شكرها ، ولا عرضها للزوال بمثل العمل فيها بمعاصى الله . وهو كفران النعمة . وهو باب إلى كفران المنعم .

فالمحسن المتصدق يستخدم جندا وعسكرا يقاتلون عنه وهو نائم على فراشه . فمن لم يكن له جند ولا عسكر ، وله عدو . فإنه يوشك أن يظفر به عدوه ، وإن تأخرت مدة الظفر . والله المستعان .

السبب التاسع : وهو من أصعب الأسباب على النفس ، وأشقها عليها ، ولا يوفق له إلا من عَظُم حظه من الله — وهو إطفاء نار الحـاسد والباغى والمؤذى بالإحسان إليه . فكلما ازداد أذًى وشرًّا و بغياً وحسداً ازددت إليه إحسانا ، وله نصيحة ، وعليه شفقة . وما أظنك تُصدِّق بأن هذا يكون ، فضلاً عن أن تتعاطاه

فاسمع الآن قوله عز وجل (٤١ : ٣٤ — ٣٦ ولا تستوى الحسنة ولا السيئة ، ادفع بالتى هى أحسن فإذا الذى بينك و بينه عداوه كأنه ولى حميم . وما يُلقَّاها إلا الذين صبروا . وما يُلقَّاها إلا ذو حظ عظيم . وإما ينزغنك من الشيطان نَزْغٌ فاستعذ بالله . إنه هو السميع العليم) وقال (٢٨ : ٥٤ أولئك يؤتون أجرهم مرتين بما صبروا ، و يدرءون بالحسنة السيئة . ومما رزقناهم ينفقون)

وتأمل حال النبى صلى الله عليه وسلم إذ ضر به قومه حتى أدموه . فجعل يَسْلُت الدم عنه ، و يقول «اللهم اغفر لقومى فإنهم لايعلمون» كيف جمع فى هذه الكلمات أر بع مقامات من الاحسان ، قابل بها إساءتهم العظيمة إليه ؟

أحدها : عفوه عنهم . والثانى : استغفاره لهم . والثالث : اعتـذاره عنهم

بأنهم لايعلمون . والرابع : استعطافه لهم باضافتهم إليه . فقال « اغفر لقومى » كما يقول الرجل لمن يشفع عنده فيمن يتصل به : هذا ولدى : هذا غلامى . هذا صاحبى ، فَهبْهُ لى .

واسمع الآن ماالذى يسهل هذا على النفس ، وَيطيبه إليها ويُنْعمها به .

اعلم أن لك ذنوبا بينك و بين الله ، تخاف عواقبها ، وترجوه أن يعفو عنها و يغفرها لك و يهبها لك . ومع هذا لايقتصر على مجرد العفو والمسامحة ، حتى ينعم عليك و يكرمك ، و يجلب إليك من المنافع والاحسان فوق ماتؤمله . فإذا كنت ترجو هذا من ربك،وتحب أن يقابل به إساءتك ، فما أولاك وأجدرك أن تعامل به خلقه ، وتقابل به إساءتهم ؟ ليعاملك الله تلك المعاملة . فإن الجزاء من جنس العمل فكما تعمل مع الناس فى إساءتهم فى حقك يفعل الله معك فى ذنوبك و إساءتك، جزاء وفاقا . فانتقم بعد ذلك ، أو اعف ، وأحسن أو اترك . فكما تَدين تدان ، وكما تفعل مع عباده يفعل معك [1] .

فمن تصور هذا المعنى ، وشغل به فكره . هان عليه الإحسان إلى من أساء إليه .

وهذا مع ما يحصل له بذلك من نصر الله ومعيته الخاصة . كما قال النبي صلى الله عليه وسلم للذى شكى إليه قرابته ، وأنه يحسن اليهم ، وهم يسيؤون اليه . فقال « لايزال معك من الله ظهير ، مادمت على ذلك »

هذا مع ما يتعجله من ثناء الناس عليه ، و يصيرون كلهم معه على خصمه .

---

(١) وفى هذا أنزل الله فى شأن الصديق رضى الله عنه حين أقسم أن لا ينفق على مسطح ، لما خاض فى حديث الإفك (٢٤ : ٢٢ ولا يأتل أولو الفضل منكم والسعة أن يؤتوا أولى القربى والمساكين والمهاجرين فى سبيل الله . وليعفوا وليصفحوا . ألا تحبون أن يغفر الله لكم ؟ والله غفور رحيم)

فإن كل من سمع أنه محسن إلى ذلك الغير ، وهو مسىء إليه . وجد قلبه ودعاءه وهمته مع المحسن على المسىء . وذلك أمر فطرى ، فطر الله عليه عباده . فهو بهذا الإحسان ، قد استخدم عسكرا لا يعرفهم ولا يعرفونه ، ولا يريدون منه إقطاعاً ولا خبزا .

هذا مع أنه لابد له مع عدوه وحاسده من إحدى حالتين : إما أن يملكه باحسانه ، فيستعبده وينقاد له ، ويذل له ، ويبقى الناس إليه . وإما أن يفتت كبده ويقطع دابره ، إن أقام على إساءته اليه . فإنه يذيقه باحسانه أضعاف ما ينال منه بانتقامه ، ومن جرب هذا عرفه حق المعرفة . والله هو الموفق والمعين . بيده الخير كله ، لا إله غيره ، وهو المسؤل أن يستعملنا وإخواننا فى ذلك بمنه وكرمه .

وفى الجملة : ففى هذا المقام من الفوائد مايزيد على مائة منفعة للعبد عاجلة وآجلة . سنذكرها فى موضع آخر إن شاء الله تعالى.

السبب العاشر : وهو الجامع لذلك كله ، وعليه مدار هذه الأسباب ، وهو تجريد التوحيد ، والترحل بالفكر فى الأسباب إلى المسبب العزيز الحكيم ، والعلم بأن هذه الآلات بمنزلة حركات الرياح ، وهى بيد محركها ، وفاطرها وبارئها ، ولا تضر ولا تنفع إلا بإذنه . فهو الذى يحسن عبده بها . وهو الذى يصرفها عنه وحده لا أحد سواه . قال تعالى (١٠: ١٠٧ وإن يمسسك الله بضر فلا كاشف له إلا هو ، وإن يردك بخير فلا راد لفضله) وقال النبى صلى الله عليه وسلم لعبد الله بن عباس رضى الله عنهما « واعلم أن الأمة لو اجتمعوا على أن ينفعوك بشىء لم ينفعوك إلا بشىء كتبه الله لك ، ولو اجتمعوا على أن يضروك بشىء لم يضروك إلا بشىء كتبه الله عليك» .

فإذا جرد العبد التوحيد فقد خرج من قلبه خوف ماسواه ، وكان عدوه أهون عليه من أن يخافه مع الله ، بل يفرد الله بالمخافة وقد أمنه منه . وخرج من

قلبه اهتمامه به ، واشتغاله به وفكره فيه ، وتجرد لله محبة وخشية و إنابة وتوكلا ، واشتغالا به عن غيره ، فيرى أن إعماله فكره فى أمر عدوه وخوفه منه واشتغاله به من نقص توحيده ، و إلا فلو جرد توحيده لكان له فيه شغل شاغل ، والله يتولى حفظه والدفع عنه ، فإن الله يدافع عن الذين آمنوا ، فإن كان مؤمناً بالله فالله يدافع عنه ولابد . و بحسب إيمانه يكون دفاع الله عنه. فإن كمل إيمانه كان دفع الله عنه أتم دفع ، و إن مزج ، مزج له . و إن كان مرة ومرة فالله له مرة ومرة ، كما قال بعض السلف : من أقبل على الله بكليته أقبل الله عليه جملة . ومن أعرض عن الله بكليته أعرض الله عنه جملة . ومن كان مرة ومرة فالله له مرة ومرة .

فالتوحيد حصن الله الأعظم الذى من دخله كان من الآمنين ، قال بعض السلف : من خاف الله خافه كل شىء . ومن لم يخف الله أخافه من كل شىء .

هذه عشرة أسباب يندفع بها شر الحاسد والعائن والساحر ، وليس له أنفع من التوجه إلى الله و إقباله عليه ، وتوكله عليه ، وثقته به ، وأن لا يخاف معه غيره ، بل يكون خوفه منه وحده ، ولا يرجو سواه ، بل يرجوه وحده ، فلا يعلق قلبه بغيره ، ولا يستغيث بسواه . ولا يرجو إلا إياه . ومتى علَّق قلبه بغيره ورجاه وخافه : وُكِل إليه وخُذل من جهته. فمن خاف شيئاً غير الله سُلِّط عليه . ومن رجا شيئاً سوى الله خُذل من جهته وحُرم خيْره . هذه سنة الله فى خلقه . ولن تجد لسنة الله تبديلا .

فصـــل

فقد عرفت بعض ما اشتملت عليه هذه السورة من القواعد النافعة المهمة التى لا غنى للعبد عنها فى دينه ودنياه ، ودلت على أن نفوس الحاسدين وأعينهم لها تأثير ، وعلى أن الأرواح الشيطانية لها تأثير بواسطة السحر والنَّفْث فى العُقَد .

وقد افترق العالم فى هذا المقام أربع فرق .

ففرقة : أنكرت تأثير هذا وهذا . وهم فرقتان .

فرقة : اعترفت بوجود النفوس الناطقة والجن ، وأنكرت تأثيرهما البتة . وهذا قول طائفة من المتكلمين ممن أنكر الأسباب والقوى والتأثيرات .

وفرقة أنكرت وجودهما بالكلية . وقالت : لا وجود لنفس الآدمى سوى هذا الهيكل المحسوس ، وصفاته وأعراضه فقط . ولا وجود للجن والشياطين سوي أعراض قائمة به . وهذا قول كثير من ملاحدة الطبائعيين وغيرهم من الملاحدة المنتسبين إلى الإسلام . وهو قول شذاذ من أهل الكلام الذين ذمهم السلف ، وشهدوا عليهم بالبدعة والضلالة .

الفرقة الثانية : أنكرت وجود النفس الإنسانية المفارقة للبدن ، وأقرت بوجود الجن والشياطين ، وهذا قول كثير من المتكلمين من المعتزلة وغيرهم .

الفرقة الثالثة : بالعكس ، أقرت وجود النفس الناطقة المفارقة البدن ، وأنكرت وجود الجن والشياطين . وزعمت أنها غير خارجة عن قوى النفس وصفاتها . وهذا قول كثير من الفلاسفة الإسلاميين وغيرهم .

وهؤلاء يقولون إن مايوجد فى العالم من التأثيرات الغريبة والحوادث الخارقة فهو من تأثيرات النفس ، ويجعلون السحر والكهانة كله من تأثير النفس وحدها ، بغير واسطة شيطان منفصل ، وابن سينا وأتباعه على هذا القول ، حتى إنهم يجعلون معجزات الرسل من هذا الباب .

ويقولون إنما هى من تأثيرات النفس فى هيولى العالم .

وهؤلاء كفار بإجماع أهل الملل . ليسوا من أتباع الرسل جملة .

الفرقة الرابعة : وهم أتباع الرسل ، وأهل الحق : أقروا بوجود النفس الناطقة المفارقة للبدن ، وأقروا بوجود الجن والشياطين ، وأثبتوا ماأثبته الله تعالى من صفاتهما وشرهما ، واستعاذوا بالله منه . وعلموا أنه لا يعيذهم منه ، ولا يجيرهم إلا الله .

فهؤلاء أهل الحق . ومن عداهم مفرط فى الباطل ، أو معه باطل وحق .
والله يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم .

فهذا ما يسر الله من الكلام على سورة الفلق .

سورة الناس

بسم الله الرحمن الرحيم

قول الله تعالى ذكره :

(قل أعوذ برب الناس . ملك الناس . إله الناس . من شر الوسواس الخناس . الذى يوسوس فى صدور الناس . من الجنة والناس)

قد تضمنت أيضاً استعاذة ، ومستعاذاً به ، ومستعاذاً منه .

فالاستعاذة تقدمت .

وأما المستعاذ به : فهو الله (رب الناس . ملك الناس . إله الناس) فذكر ربوبيته للناس ، وملكه إياهم ، وإلهيته لهم ، ولا بد من مناسبة فى ذكر ذلك فى الاستعاذة من الشيطان ، كما تقدم .

فذكر أولا معنى هذه الإضافات الثلاث . ثم وجه مناسبتها لهذه الاستعاذة ، فنقول :

الإضافة الأولى : إضافة الربوبية المتضمنة لخلقهم وتدبيرهم ، وتربيتهم ، وإصلاحهم ، وجلب مصالحهم ، وما يحتاجون إليه ، ودفع الشر عنهم ، وحفظهم مما يفسدهم . هذا معنى ربوبيته لهم . وذلك يتضمن قدرته التامة . ورحمته الواسعة ، وإحسانه ، وعلمه بتفاصيل أحوالهم ، وإجابة دعواتهم ، وكشف كرباتهم

الإضافة الثانية : إضافة الملك : فهو ملكهم المتصرف فيهم : وهم عبيده ومماليكه ، وهو المتصرف لهم المدبر لهم كما يشاء ، النافذ القدرة فيهم ، الذى له

السلطان التام عليهم ، فهو ملكهم الحق : الذى إليه مفزعهم عند الشدائد والنوائب، وهو مستغاثهم ومَعاذهم وملجأهم. فلا صلاح لهم ولاقيام إلا به و بتدبيره فليس لهم ملك غيره يهربون إليه إذا دهمهم العدو ، و يستصرخون به إذا نزل العدو بساحتهم .

الإضافة الثالثة : إضافة الإلهية . فهو إلههم الحق ، ومعبودهم الذى لا إله لهم سواه ولا معبود لهم غيره . فكما أنه وحده هو ربهم ومليكهم لم يشركه فى ربوبيته ولا فى ملكه أحد ، فكذلك هو وحده إلههم ومعبودهم . فلا ينبغى أن يجعلوا معه شريكا فى إلهيته ، كما لا شريك معه فى ربوبيته وملكه .

وهذه طريقة القرآن يحتج عليهم باقرارهم بهذا التوحيد على ماأنكروه من توحيد الإلهية والعبادة .

و إذا كان وحده هو ربنا وملكنا و إلهنا ، فلا مفزع لنا فى الشدائد سواه . ولا ملجأ لنا منه إلا إليه . ولا معبود لنا غيره . فلا ينبغى أن يُدْعَى ولا يخاف ولا يرجى ، ولا يُحَب سواه ، ولا يُذَلّ لغيره ، ولا يخضع لسواه ، ولا يتوكَّل إلا عليه ، لأن من ترجوه وتخافه وتدعوه وتتوكل عليه : إما أن يكون مُربِّيك والقيم بأمورك ، ومتولى شأنك وهو ربك ، فلا رب سواه ، أو تكون مملوكه وعبده الحق ، فهو ملك الناس حقاً ، وكلهم عبيده ومماليكه، أو يكون معبودك و إلهك الذى لا تستغنى عنه طرفة عين ، بل حاجتك إليه أعظم من حاجتك إلى حياتك وروحك ، وهو الإله الحق إله الناس الذى لا إله لهم سواه .

فمن كان ربهم وملكهم و إلههم فهم جديرون أن لا يستعيذوا بغيره ، ولا يستنصروا بسواه ، ولا يلجأوا إلى غير حماه ، فهو كافيهم وحسبهم وناصرهم ووليهم ، ومتولى أمورهم جميعاً بربوبيته وملكه و إلهيته لهم ، فكيف لا يلتجىء العبد عند النوازل ونزول عدوه به إلى ربه ومالكه و إلهه ؟ .

فظهرت مناسبة هذه الإضافات الثلاث للاستعاذة : من أعدى الأعداء وأعظمهم عداوة ، وأشدهم ضرراً ، وأبلغهم كيداً .

ثم إنه سبحانه كرر الإسم الظاهر ، ولم يوقع المضمر موقعه . فيقول : رب الناس وملكهم و إلههم : تحقيقاً لهذا المعنى ، وتقوية له . فأعاد ذكرهم عند كل اسم من أسمائه ، ولم يعطف بالواو لما فيها من الإيذان بالمغايرة .

والمقصود : الاستعاذة بمجموع هذه الصفات ، حتى كأنها صفة واحدة .

وقدم الربوبية لعمومها وشمولها لكل مربوب .

وأخر الإلهية لخصوصها لأنه سبحانه إنما هو إله مَنْ عبده ووحده واتخذه دون غيره إلهاً . فمن لم يعبده ويوحده فليس بإلهه . وإن كان فى الحقيقة لا إله له سواه ، ولكن المشرك ترك إلهه الحق واتخذ إلهاً غيره باطلاً .

ووسَّط صفة الملك بين الربوبية والإلهية لأن الملك هو المتصرف بقوله وأمره . فهو المطاع إذا أمر . وملكه لهم تابع لخلقه إياهم . فملكه من كمال ربوبيته . وكونه إلههم الحق من كمال ملكه . فربوبيته تستلزم ملكه وتقتضيه . وملكه يستلزم إلهيته ويقتضيها ، فهو الرب الحق ، الملك الحق ، الإله الحق ، خلقهم بربوبيته وقهرهم بملكه . واستعبدهم بإلهيته .

فتأمل هذه الجلالة ، وهذه العظمة ، التى تضمنتها هذه الألفاظ الثلاثة على أبدع نظام ، وأحسن سياق « رب الناس ، ملك الناس ، إله الناس »

وقد اشتملت هذه الإضافات الثلاث على جميع قواعد الإيمان ، وتضمنت معانى أسمائه الحسنى .

أما تضمنها لمعانى أسمائه الحسنى : فان الرب هو القادر الخالق ، البارىء المصور ، الحى القيوم ، العليم السميع البصير ، المحسن المنعم ، الجواد المعطى المانع ، الضار النافع ، المقدم المؤخر ، الذى يضل من يشاء ، ويهدى من يشاء ، ويسعد

من يشاء ، ويشقى من يشاء ، ويعز من يشاء ، ويذل من يشاء — إلى غير ذلك من معانى ربوبيته التى له منها ما يستحقه من الأسماء الحسنى .

وأما الملك : فهو الآمر الناهى ، المعز المذل ، الذى يصرِّف أمور عباده كما يحب ، ويُقلِّبهم كما يشاء . وله من معنى الملك ما يستحقه من الأسماء الحسنى ، كالعزيز ، الجبار المتكبر ، الحكم العدل ، الخافض الرافع ، المعز المذل ، العظيم الجليل الكبير ، الحسيب المجيد ، الوالى المتعالى ، مالك الملك ، المقسط الجامع — إلى غير ذلك من الأسماء العائدة إلى الملك .

وأما الإله : فهو الجامع لجميع صفات الكمال ونعوت الجلال . فيدخل فى هذا الإسم جميع الأسماء الحسنى . ولهذا كان القول الصحيح : أن « الله » أصله الإله . كما هو قول سيبويه وجمهور أصحابه ، إلا من شذ منهم ، وأن اسم الله تعالى هو الجامع لجميع معانى الأسماء الحسنى والصفات العلى . فقد تضمنت هذه الأسماء الثلاثة جميع معانى أسمائه الحسنى . فكان المستعيذ بها جديراً بأن يعاذ ويحفظ ، ويمنع من الوسواس الخناس ولا يسلط عليه .

وأسرار كلام الله أجل وأعظم من أن تدركها عقول البشر . وإنما غاية أولى العلم الاستدلال بما ظهر منها على ما وراءه ، وأن نسبة باديه إلى الخافى يسير .

فصل

وهذه السورة مشتملة على الاستعاذة من الشر الذى هو سبب الذنوب والمعاصى كلها . وهو الشر الداخل فى الإنسان ، الذى هو منشأ العقوبات فى الدنيا والآخرة .

فسورة الفلق : تضمنت الاستعاذة من الشر الذى هو ظلم الغير له بالسحر والحسد . وهو شر من خارج .

وسورة الناس : تضمنت الاستعاذة من الشر الذى هو سبب ظلم العبد نفسه وهو شر من داخل .

فالشر الأول : لايدخل تحت التكليف ، ولا يطلب منه الكف عنه . لأنه ليس من كسبه .

والشر الثانى فى سورة الناس : يدخل تحت التكليف ، ويتعلق به النهى . فهذا شر المعائب . والأول شر المصائب . والشر كله يرجع إلى العيوب والمصائب . ولا ثالث لهما .

فسورة الفلق تتضمن الاستعاذة من شر المصيبات . وسورة النـاس تتضمن الاستعاذة من شر العيوب التى أصلها كلها الوسوسة .

فصل

إذا عرف هذا ، فالوسواس : فَعْلال من وَسْوَس .

وأصل الوسوسة : الحركة أو الصوت الخفى الذى لا يحس ، فيحترز منه .

فالوسواس : الالقاء الخفى فى النفس ، إما بصوت خفى لا يسمعه إلا من ألقى إليه ، وإما بغير صوت ، كما يوسوس الشيطان إلى العبد .

ومن هذا : وسوسة الحلى وهو حركته الخفية فى الأذن

والظاهر ــ والله أعلم ــ أنها سميت وسوسة لقربها ، وشدة مجاورتهـا لمحل الوسوسة من شياطين الإنس . وهو الإذن . فقيل : وسوسة الحلى . لأنه صوت مجاور للأذن ، كوسوسة الـكلام الذى يلقيه الشيطان فى أذن من يوسوس له

ولما كانت الوسوسة كلاما يكرره الموسوس ، ويؤكده عند من يلقيه إليـه كرروا لفظها بإزاء تكرير معناها . فقالوا: وسوس وسوسة . فراعوا تكرير اللفظ ليفهم منه تكرير مسماه .

ونظير هذا : ما تقدم من متابعتهم حركة اللفظ بإزاء متابعة حركة معناه ، كالدوران ، والغليان ، والنزوان ، وبابه .

ونظير ذلك : زلزل ، ودكدك ، وقلقل ، وكبكب الشىء . لأن الزلزلة حركة

متكررة . وكذلك الدكدكة ، والقلقلة . وكذلك كبكب الشيء : إذا كبه فى مكان بعيد ، فهو يُكَبُّ فيه كبا بعد كب كقوله تعالى (٢٦:٩٤فكبكبوا فيها هم والغاوون) ومثله : رَضْرَضه إذا كرر رَضَّه مرة بعد مرة . ومثله : ذَرْذَره . إذا ذره شيئاً بعد شيء . ومثله صَرْصَر : الباب : إذا تكرر صريره. ومثله : مَطْمَط الكلام : إذا مطله شيئاً بعد شيء . ومثله : كفكف الشيء : إذا كرر كَفَّه ، وهو كثير .

وقد علم بهذا أن من جعل هذا الرباعي بمعنى الثلاثى المضاعف لم يصب . لأن الثلاثى لا يدل على تكرار ، بخلاف الرباعى المكرر ، فإذا قلت : ذَرَّ الشيء وصر الباب ، وكفَّ الثوب ، ورض الحبَّ : لم يدل على تكرار الفعل ، بخلاف ذرذر ، وصرصر ، ورضرض ، ونحوه

فتأمله . فانه مطابق للقاعدة العربية فى الحذو بالألفاظ حذو المعانى . وقد تقدم التنبيه على ذلك . فلا وجه لاعادته

وكذلك قولهم : عَج العجل : إذا صوت . فان تابع صوته ، قالوا : عجعج . وكذلك . ثَجَّ الماء إذا صُبَّ . فان تكرر ذلك قيل : ثجثج

والمقصود : أن الموسوس لما كان يكرر وسوسته ويتابعها ، قيل : وسوس

فصل

إذا عرف هذا . فاختلف النحاة فى لفظ الوسواس : هل هو وصف ،أومصدر ؟ على قولين . ونحن نذكر حجة كل قول . ثم نبين الصحيح من القولين بعون الله وفضله .

فأما من ذهب إلى أنه مصدر فاحتج بأن الفعل منه فَعْلل ، والوصف من فعلل إنما هو مُفعلَل ، كمدحرَج ، ومُسَرْهف ، ومبيطر ، ومسيطر . وكذلك هو من فعل بوزن مَفْعَل ، كمقطع ، ومخرج ، و بابه . فلو كان الوسواس صفة لقيل :

موسوس ، ألا ترى أن اسم الفاعل من زلزل : مُزلزِل ، لازلزال . وكذلك من دكدك : مدكدك . وهو مطرد . فدل على أن الوسواس مصدر وصف به على وجه المبالغة . أو يكون على حذف مضاف ، تقديره : ذو الوسواس

قالوا : والدليل عليه أيضاً قول الشاعر :

* تسمع للحلى بهـا وسواساً *

فهذا مصدر بمعنى الوسوسة سواء

قال أصحاب القول الآخر : الدليل على أنه وصف : أن فعلل ضربان .

أحدهما : صحيح لا تكرار فيه ، كدحرج ، وسرهف ، و بيطر . وقياس مصدر هـذا الفَعْلَلَة ، كالدحرجة والسَّرْهفـة ، والبيطرة ، والفِعْلان – بكسر الفاء – كالسِّرهاف والدحراج . والوصف منه : مفعلل كمدحرج ومبيطر .

والثانى : فَعّل الثنائى المكرر كزلزل ، ودكدك ووسوس . وهذا فرع على فعلل المجرد عن التكرار . لأن الأصل السلامة من التكرار . ومصدر هذا النوع والوصف منه : مساو لمصدر الأول ووصفه . فمصدره يأتى على الفَعْللة ، كالوسوسة ، والزلزلة ، والفِعْلال كالزلزال

وأقيس المصدرين وأولاهما بنوعى فعلل : الفعلال . لأمرين

أحدهما : أن فعلل مشاكل لأفعل فى عدد الحروف وفتح الأول والثالث والرابع وسكون الثانى . فجعل إفعال مصدر أفعل ، وفعلال مصدر فعلل ليتشاكل المصدران ، كما يتشاكل الفعلان . فكان الفعلال أولى بهذا الوزن من الفعللة

الثانى : أن أصل المصدر أن يخالف وزنه وزن فعله ، ومخالفة فعلال لفعلل أشد من مخالفة فعللة له . فكان فعلال أحق بالمصدرية من فعللة ، أو تساويا فى الاطراد ، مع أن فعللة أرجح فى الاستعمال وأكثر . هذا هو الأصل .

وقد جاءوا بمصدر هذا الوزن المكرر مفتوح الفاء .

فقالوا : وسوس الشيطان وَسواسا ، ووعوع الكلب وَعواعا . إذا عوى ،

وعظعظ السهم [١] عظعاظا . والجارى على القياس فعلال بكسر الفاء أو فعللة . وهذا المفتوح نادر . لأن الرباعى الصحيح أصل للمتكرر ولم يأت مصدر الصحيح ، مع كونه أصلا ، إلا على فعللة وفعلال بالكسر . فلم يحسن بالرباعى المكرر ، لفرعيته ، أن يكون مصدره إلا كذلك . لأن الفرع لا يخالف أصله ، بل يحتذى فيه حذوه . وهذا يقتضى أن لا يكون مصدره على فعلال بالفتح . فإن شذ حُفظ ولم يزد عليه

قالوا : وأيضاً فإن فعلالا المفتوح الفاء قد كثر وقوعه صفة مصوغة من فعلل المكرر ، ليكون فيه نظير فِعال من الثلاثي . لأنهما متشاركان وزنا . فاقتضى ذلك أن لا يكون لفعلال من المصدرية نصيب ، كما لم يكن افعال فيها نصيب . فلذلك استندروا وقوع وسواس ، ووعواع ، وعظعاظ مصادَر . وإنما حقها أن تكون صفات دالة على المبالغة في مصادر هذه الأفعال .

قالوا : وإذا ثبت هذا : فحق ماوقع منها محتملا للمصدرية والوصفية أن يحمل على الوصفية حملا على الأكثر الغالب ، وتجنباً للشاذ .

فمن زعم أن الوسواس مصدر مضاف إليه « ذو » تقديراً . فقوله خارج عن القياس والاستعمال الغالب .

ويدل على فساد ما ذهب إليه أمران .

أحدهما : أن كل مصدر أضيف إليه « ذو » تقديراً ، فتجرده للمصدرية أكثر من الوصف به . كرضىً وصوم وفِطر ، وفعلال المفتوح لم يثبت تجرده للمصدرية إلا فى ثلاثة ألفاظ فقط : وسواس ، ووعواع ، وعظعاظ ، على أن منع المصدرية فى هذا ممكن . لأن غاية ما يمكن أن يستدل به على المصدرية قولهم : وسوس إليه الشيطان وسواساً . وهذا لا يتعين للمصدرية ، لاحتمال أن يراد به

---

(١) فى القاموس : عظعظ السهم عظعظة وعظعاظا بالكسر — ارتعش فى مضيه والتوى .

الوصفية : وينتصب وسواساً على الحال ، ويكون حالا مؤكدة . فإن الحال قد يؤكد بها عاملها الموافق لها لفظاً ومعنى ، كقوله تعالى (٤ : ٧٩ وأرسلناك للناس رسولا) و (١٦ :١٢سخر لكم الليل والنهار والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره)

نعم، إنما تتعين مصدرية الوسواس إذا سمع : أعوذ بالله من وسواس الشيطان ونحو ذلك مما يكون الوسواس فيه مضافاً إلى فاعله ، كما سمع ذلك فى الوسوسة . ولكن أين لكم ذلك ؟ فهاتوا شاهده . فبذلك يتعين أن يكون الوسواس مصدراً لا بانتصابه بعد الفعل .

الوجه الثانى من دليل فساد من زعم أن « وسواساً » مصدر مضاف إليه « ذو » تقديراً : أن المصدر المضاف إليه « ذو» تقديراً لا يؤنث ولا يثنى ولا يجمع . بل يلزم طريقة واحدة ، ليعلم أصالته فى المصدرية ، وأنه عارض الوصفية فيقال : امرأة صوم ، وامرأتان صوم ، ونساء صوم لأن المعنى ذات صوم وذاتا صوم ، وذوات صوم وفعلال الموصوف به ليس كذلك بل يثنى ويجمع ويؤنث فنقول : رجل ثرثار ، وامرأة ثرثارة ، ورجال ثرثارون ، وفى الحديث « أبغضكم إلىَّ الثرثارون المتفيهقون » وقالوا : ريح رفرافة ، أى تحرك الأشجار ، وريح سفسافة أى تنخل التراب ، ودرع فضفاضة أى متسعة ، والفعل من ذلك كله فعلل، والمصدر فَعللة و فِعلال بالكسر ، ولم ينقل فى شىء من ذلك فعلال بالفتح وكذلك قالوا : تمتام وفأفاء ، ولضلاض ، أى ماهر فى الدلالة ، وفَجفاج كثير الكلام وهَرهار أى ضحاك ، وكهكاه ، ووطواط أى ضعيف ، وحشحاش ، وعسعاس أى خفيف. وهو كثير . ومصدره كله الفعللة،والوصف فعلال بالفتح، ومثله هفهاف أى خميص ، ومثله دحداح ، أى قصير ، ومثله : بجباج أى جسيم ، وتختاخ : أى أَلْكَن ، وشَمْشام : أى سريع ، وشىء خشخاش أي مصوت ، وقعقاع مثله ، وأسد قَضْقاض : أى كاسر ، وحَيَّة نَضْناض : تحرك لسانها .

فقد رأيت فعلال فى هذا كله وصفاً لا مصدراً . فما بال الوسواس أُخرج عن نظائره وقياس بابه ؟

فثبت أن وسواساً وصف لا مصدر ، كثرثار ، وتمتام ، ودحداح وبابه .

ويدل عليه وجه آخر : وهو أنه وصفه بما يستحيل أن يكون مصدراً ، بل هو متعين في الوصفية ، وهو « الخناس » فالوسواس ، والخناس : وصفان لموصوف محذوف . وهو الشيطان .

وحسَّن حذف الموصوف ههنا غلبة الوصف ، حتى صار كالعلم عليه.والموصوف إنما يقبح حذفه إذا كان الوصف مشتركا . فيقع اللبس كالطويل والقبيح ، والحسن ونحوه ، فيتعين ذكر الموصوف ليعلم أن الصفة له لا لغيره .

فأما إذا غلب الوصف واختص ، ولم يعرض فيه اشتراك . فإنه يجرى مجرى الاسم ، ويحسن حذف الموصوف : كالمسلم والكافر ، والبر ، والفاجر ، والقاضى ، والدانى ، والشاهد والوالى ، ونحو ذلك . فحذف الموصوف هنا أحسن من ذكره .

وهذا التفصيل أولى من إطلاق من منع حذف الموصوف ولم يفصل .

ومما يدل على أن الوسواس وصف لا مصدر : أن الوصفية أغلب على فعلال من المصدرية كما تقدم . فلو أريد المصدر لأتى بذو المضافة إليه ليزول اللبس وتتعين المصدرية . فإن اللفظ إذا احتمل الأمرين على السواء فلا بد من قرينة تدل على تعيين أحدهما . فكيف والوصفية أغلب عليه من المصدرية ؟

وهذا بخلاف صوم وفطر وبابهما ، فإنها مصادر لا تلتبس بالأوصاف . فاذا جرت أوصافا عُلم أنها على حذف مضاف ، أو تنزيلا للمصدر منزلة الوصف ، مبالغة ، على الطريقتين فى ذلك .

فتعين أن «الوسواس» هو الشيطان نفسه . وأنه ذات لا مصدر .والله أعلم .

فصل

وأما الخناس : فهو فعَّال ، من خنس يخنس : إذا توارى واختفى .

ومنه قول أبى هريرة « لقينى النبى صلى الله عليه وسلم فى بعض طرق المدينة ، وأنا جنب . فانخنست منه » .

وحقيقة اللفظ : اختفاء بعد ظهور . فليست لمجرد الاختفاء . ولهذا وصفت بها الكواكب فى قوله تعالى (٨١ : ١٥ فلا أقسم بالخنَّس) قال قتادة : هى النجوم تبدو بالليل وتخنس بالنهار ، فتختفى ولا ترى . وكذلك قال على رضى الله عنه : هى الكواكب تخنس بالنهار فلا ترى .

وقالت طائفة : الخنَّس : هى الراجعة التى ترجع كل ليلة إلى جهة المشرق ، وهى السبعة السيارة .

قالوا : وأصل الخنوس : الرجوع إلى وراء . و« الخناس » مأخوذ من هذين المعنيين . فهو من الاختفاء والرجوع والتأخر . فإن العبد إذا غفل عن ذكر الله جثم على قلبه الشيطان ، وانبسط عليه ، و بذر فيه أنواع الوساوس التى هى أصل الذنوب كلها . فاذا ذكر العبد ربه واستعاذ به ، انخنس وانقبض ، كما ينخنس الشىء ليتوارى . وذلك الانخناس والانقباض : هو أيضاً تجمُّع ورجوع ، وتأخر عن القلب إلى خارج . فهو تأخر ورجوع معه اختفاء .

وخنس وانخنس : يدل على الأمرين معاً . قال قتادة : الخناس : له خرطوم كخرطوم الكلب فى صدر الإنسان . فاذا ذكر العبد ربه خنس . ويقال : رأسه كرأس الحية . وهو واضع رأسه على ثمرة القلب يُمَنِّيه ويحدثه . فاذا ذكر الله خنس . وإذا لم يذكره عاد ، ووضع رأسه يوسوس إليه ويمنيه .

وجىء من هذا الفعل بوزن فعَّال الذى للمبالغة دون الخانس والمنخنس : إيذاناً بشدة هروبه ورجوعه ، وعظم نفوره عند ذكر الله . وأن ذلك دأبه وديدنه

لا أنه يعرض له ذلك عند ذكر الله أحياناً. بل إذا ذكر الله هرب وانخنس وتأخر.
فان ذكر الله هو مقمعته التي يُقمَع بها، كما يقمع المفسد والشرير بالمقامع التي تردعه من سياط وحديد وعِصِيّ ونحوها. فذكر الله يقمع الشيطان و يؤلمه و يؤذيه، كالسياط والمقامع التي تؤذى من يضرب بها. ولهذا يكون شيطان المؤمن هزيلا ضئيلا مُضنًى، مما يعذبه المؤمن و يقمعه به من ذكر الله وطاعته.

وفى أثر عن بعض السلف: أن المؤمن يُنضى شيطانه كما يُنضى الرجل بعيره فى السفر. لأنه كلما اعترضه صب عليه سياط الذكر، والتوجه والاستغفار والطاعة. فشيطانه معه فى عذاب شديد. ليس بمنزلة شيطان الفاجر الذى هو معه فى راحة ودعة. ولهذا يكون قويا عاتياً شديداً.

فمن لم يعذب شيطانه فى هذه الدار بذكر الله تعالى وتوحيده واستغفاره وطاعته عذبه شيطانه فى الآخرة بعذاب النار. فلا بد لكل أحد أن يعذب شيطانه أو يعذبه شيطانه.

وتأمل كيف جاء بناء «الوسواس» مكرراً لتكريره الوسوسة الواحدة مراراً، حتى يعزم عليها العبد. وجاء بناء «الخناس» على وزن الفعال الذى يتكرر منه نوع الفعل. لأنه كلما ذكر الله انخنس، ثم إذا غفل العبد عاوده بالوسوسة. فجاء بناء اللفظين مطابقاً لمعنييهما.

فصل

وقوله (الذى يوسوس فى صدور الناس) صفة ثالثة للشيطان. فذكر وسوسته أولا. ثم ذكر محلها ثانياً، وأنها فى صدور الناس ثالثا.

وقد جعل الله للشيطان دخولا فى جوف العبد ونفوذاً إلى قلبه وصدره. فهو يجرى منه مجرى الدم. وقد وكل بالعبد فلا يفارقه إلى الممات.

وفى الصحيحين من حديث الزهرى عن على بن حسين عن صفية بنت حُيَيّ

قالت « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم معتكفاً، فأتيته أزوره ليلا . فحدثته . ثم قمت ، فانقلبت ، فقام معى ليقلبنى . وكان مسكنها فى دار أسامة بن زيد ، فمر رجلان من الأنصار . فلما رأيا النبى صلى الله عليه وسلم أسرعا . فقال : النبى صلى الله عليه وسلم: على رِسلكما ، إنها صفية بنت حيي. فقالا: سبحان الله يارسول الله! فقال : إن الشيطان يجرى من الإنسان مجرى الدم . وإنى خشيت أن يقذف فى قلوبكما سوءاً ـ أو قال ـ شيئاً » .

وفى الصحيح أيضاً عن أبى سلمة بن عبد الرحمن عن أبى هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إذا نودى بالصلاة أدبر الشيطان وله ضراط . فاذا قضى أقبل . فاذا ثُوب بها أدبر . فاذا قضى أقبل ، حتى يخطر بين الإنسان وقلبه، فيقول : اذكر كذا اذكر كذا ـ لما لم يكن يذكر ـ حتى لا يدرى : أثلاثاً صلى أم أربعاً ؟ فاذا لم يدر : أثلاثاً صلى أم أربعاً ؟ سجد سجدتى السهو »

ومن وسوسته : ما ثبت فى الصحيح عن أبى هريرة عن النبى صلى الله عليه وسلم قال « يأتى الشيطان أحدكم فيقول : من خلق كذا ؟ من خلق كذا ؟ حتى يقول : من خلق الله ؟ فمن وجد ذلك فليستعذ بالله ولينته »

وفى الصحيح : أن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم قالوا « يارسول الله إن أحدنا ليجد فى نفسه مالأن يخِرَّ من السماء إلى الأرض أحبُّ إليه من أن يتكلم به . قال : الحمد لله الذى رد كيده إلى الوسوسة »

ومن وسوسته أيضاً : أن يشغل القلب بحديثه حتى ينسيه ما يريد أن يفعله . ولهذا يضاف النسيان إليه إضافته إلى سببه . قال تعالى حكاية عن صاحب موسى إنه قال (١٨ :٦٣فإنى نسيت الحوت وما أنسانيه إلا الشيطان أن أذكره)

وتأمل حكمة القرآن وجلالته كيف أوقع الاستعاذة من شر الشيطان الموصوف بأنه « الوسواس الخناس ، الذى يوسوس فى صدور الناس » ولم يقل : من شر وسوسته : لتعم الاستعاذة شره جميعه . فان قوله (من شر الوسواس) يعم كل

شره . ووصفه بأعظم صفاته وأشدها شراً ، وأقواها تأثيراً وأعمها فساداً . وهى الوسوسة التى هى مبادىء الإرادة . فان القلب يكون فارغا من الشر والمعصية فيوسوس إليه ، ويُخطر الذنبَ بباله ، فيصوره لنفسه ويمنيه ، ويشهيه ، فيصير شهوة ، ويزينها له ويحسنها ، ويخيلها له فى خياله ، حتى تميل نفسه إليه ، فيصير إرادة . ثم لايزال يمثل له ويخيل ويمنى ويشهى وينسى علمه بضررها ، ويطوى عنه سوء عاقبتها . فيحول بينه وبين مطالعته ، فلا يرى إلا صورة المعصية والتذاذه بها فقط . وينسى ما وراء ذلك . فتصير الإرادة عزيمة جازمة . فيشتد الحرص عليها من القلب . فيبعث الجنود فى الطلب . فيبعث الشيطان معهم مدداً لهم وعوناً . فان فتروا حَرَّكهم . وإن وَنُوا أزعجهم . كما قال تعالى (١٩ :٨٣ألم تر أنا أرسلنا الشياطين على الكافرين تؤزهم أزاً) أى تزعجهم إلى المعاصى إزعاجاً . كلما فتروا أو ونوا أزعجتهم الشياطين وأزّتهم وأثارتهم . فلا تزال بالعبد تقوده إلى الذنب ، وتنظم شمل الاجتماع بألطف حيلة وأتم مكيدة . وقد رضى لنفسه بالقيادة لفجرة بنى آدم ، وهو الذى استكبر وأبى أن يسجد لأبيهم . فلا بتلك النخوة والكبر ولا [1] برضاه أن يصير قواداً لكل من عصى الله . كما قال بعضهم :

عجبت من إبليس فى تيهه ✻ وقبح ما أظهر من. نخوته

تاه على آدم في سجدة ✻ وصار قواداً لذريته

فأصل كل معصية وبلاء : إنما هو الوسوسة . فلهذا وصفه بها لتكون الاستعاذة من شرها أهم من كل مستعاذ منه . وإلا فشره بغير الوسوسة حاصل أيضاً .

فمن شره : أنه لص سارق لأموال الناس . فكل طعام أو شراب لم يذكر

---

(١) الظاهر الذي يقتضيه المعنى « فلم تمنعه النخوة والكبر أن يصير قواداً لكل من عصى الله » اه

اسم الله عليه فله فيـه حظ بالسرقة والخطف . وكذلك يبيت في البيت إذا لم يذكر فيه اسم الله ، فيأكل طعام الإنس بغير إذنهم ، ويبيت فى بيوتهم بغير أمرهم . فيدخل سارقا ويخرج مغيراً . ويدل على عوراتهم . فيأمر العبد بالمعصية. ثم يلقى فى قلوب الناس يقظة ومناما أنه فعل كذا وكذا .

ومن هذا: أن العبد يفعل الذنب لايطلع عليه أحد من الناس، فيصبح والناس يتحدثون به ، وما ذاك إلا أن الشيطان زينه له وألقاه فى قلبه ، ثم وسوس إلى الناس بما فعل وألقاه إليهم ، فأوقعه فى الذنب ، ثم فضحه به . فالرب تعالى يستره والشيطان يجهد فى كشف ستره وفضيحته . فيغتر العبد ويقول : هذا ذنب لم يره إلا الله . ولم يشعر بأن عدوه ساع فى إذاعته وفضيحته . وقل من يتفطن من الناس لهذه الدقيقة .

ومن شره : أنه إذا نام العبد عقد على رأسه عقدا تمنعه من اليقظة . كما فى صحيح البخارى عن سعيد بن المسيب عن أبى هريره أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « يعقد الشيطان على قافية رأس أحدكم ـ إذا هو نام ـ ثلاث عقد ، يضرب على كل عقدة مكانها : عليك ليل طويل فارقد . فإن استيقظ فذكر الله انحلَّت عقدة . فإن توضأ انحلت عقدة . فإن صلى انحلت عقده كلهـا . فأصبح نشيطا طيب النفس ، وإلا أصبح خبيث النفس كسلان »

ومن شره : أنه يبول فى أذن العبد حتى ينام إلى الصباح ، كما ثبت عن النبى صلى الله عليه وسلم « أنه ذكر عنده رجل نام ليله حتى أصبح . فقال : ذاك رجل بال الشيطان فى أذنيه ، أو قال : فى أذنه » رواه البخارى .

ومن شره : أنه قعد لابن آدم بطرق الخير كلها . فما من طريق من طرق الخير إلا والشيطان مرصد عليه يمنعه بجهده أن يسلكه . فإن خالفه وسلكه ثَبَّطه فيه وعَوَّقه وشوش عليه بالمعارضات والقواطع . فإن عمله وفرغ منه قَيَّض له ما يبطل أثره ويرده على حافرته .

ويكفى من شره : أنه أقسم بالله ليقعدن لبنى آدم صراطه المستقيم . وأقسم ليأتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم .

ولقد بلغ شره :أن أعمل المكيدة و بالغ فى الحيلة حتى أخرج آدم من الجنة . ثم لم يكفه ذلك حتى استقطع من أولاده شُرْطة للنار ، من كل ألف : تسعمائة وتسعة وتسعين . ثم لم يكفه ذلك حتى أعمل الحيلة فى إبطال دعوة الله من الأرض وقصد أن تكون الدعوة له ، وأن يُعبَد هو من دون الله . فهو ساع بأقصى جهده على إطفاء نور الله ، و إبطال دعوته ، و إقامة دعوة الكفر والشرك ، ومحو التوحيد وأعلامه من الأرض .

ويكفى من شره : أنه تصدى لابراهيم خليل الرحمن حتى رماه قومه بالمنجنيق فى النار . فرد الله كيده عليه . وجعل النار على خليله برداً وسلاما .

وتصدى للمسيح صلى الله عليه وسلم حتى أراد اليهود قتله وصلبه . فرد الله كيده . وصان المسيح ورفعه إليه .

وتصدى لزكريا ويحيى حتى قتلا .

واستثار فرعون حتى زين له الفساد العظيم فى الأرض ، ودعوى أنه ربهم الأعلى .

وتصدى للنبى صلى الله عليه وسلم وظاهَر الكفار على قتله بجهده . والله تعالى يُكبته و يرده خاسئاً .

وتفلَّت على النبى صلى الله عليه وسلم بشهاب من نار، يريد أن يرميه به . وهو فى الصلاة . فجعل النبى صلى الله عليه وسلم يقول « ألعنك بلعنة الله » .

وأعان اليهود على سحرهم للنبى صلى الله عليه وسلم .

فإذا كان هذا شأنه وهمته فى الشر ، فكيف الخلاص منه إلا بمعونة الله وتأييده و إعاذته ؟

ولا يمكن حصر أجناس شره ، فضلا عن آحادها . إذ كل شر فى العالم فهو

السبب فيه . ولـكن ينحصر شره فى ستة أجناس . لا يزال بابن آدم حتى ينال منه واحدا منها أو أكثر .

الشر الأول : شر الـكفر والشرك ، ومعاداة الله ورسوله . فإذا ظفر بذلك من ابن آدم برد أنينه ، واستراح من تعبه معه . وهو أول ما يريد من العبد . فلا يزال به حتى يناله منه . فإذا نال ذلك صَيَّره من جنده وعسكره ، واستنابه على أمثاله وأشكاله . فصار من دعاة إبليس ونُوَّابه . فإن يئس منه من ذلك ، وكان ممن سبق له الإسلام فى بطن أمه نقله إلى المرتبة الثانية من الشر . وهى البدعة ، وهى أحب إليه من الفسوق والمعاصى . لأن ضررها فى نفس الدين . وهو ضرر متعد . وهى ذنب لا يتاب منه ، وهى مخالفة لدعوة الرسل ، ودعاء إلى خلاف ماجاءوا به . وهى باب الـكفر والشرك . فإذا نال منه البدعة ، وجعله من أهلها صار أيضاً نائبه ، وداعيا من دعاته .

فإن أعجزه من هذه المرتبة ، وكان العبد ممن سبقت له من الله موهبة السنة ، ومعاداة أهل البدع والضلال ، نقله إلى المرتبة الثالثة من الشر . وهى الـكبائر على اختلاف أنواعها . فهو أشد حرصا على أن يوقعه فيها . ولا سيما إن كان عالما متبوعا . فهو حريص على ذلك ، لينفر الناس عنه ، ثم يشيع ذنوبه ومعاصيه فى الناس ، ويستنيب منهم من يشيعها ويذيعها تدينا وتقربا بزعمه إلى الله تعالى ، وهو نائب إبليس ولا يشعر . فإن الذين يحبون أن تشيع الفاحشة فى الذين آمنوا لهم عذاب أليم فى الدنيا والآخرة . هذا إذا أحبوا إشاعتها وإذاعتها . فـكيف إذا تولوا هم إشاعتها وإذاعتها ، لا نصيحة منهم ، ولـكن طاعة لإبليس ونيابة عنه . كل ذلك لينفر الناس عنه ، وعن الانتفاع به .

وذنوب هذا ـ ولو بلغت عنان السماء ـ هى أهون عند الله من ذنوب هؤلاء ، فإنها ظلم منه لنفسه ، إذا استغفر الله وتاب إليه قبل الله توبته ، وبَدَّل سيئاته حسنات .

وأما ذنوب أولئك : فظلم للمؤمنين ، وتتبع لعوراتهم ، وقصد لفضيحتهم . والله سبحانه بالمرصاد ، لا تخفى عليه كائنُ الصدر ، ودسائس النفوس .

فإن عجز الشيطان عن هذه المرتبة نقله إلى المرتبة الرابعة : وهى الصغائر التى إذا اجتمعت فربما أهلكت صاحبها . كما قال النبى صلى الله عليه وسلم « إيا كم ومُحقَّرات الذنوب ، فإن مثل ذلك مثل قوم نزلوا بفلاة من الأرض » وذكر حديثا معناه : أن كل واحد منهم جاء بعود حطب ، حتى أوقدوا ناراً عظيمة فطبخوا واشتووا .

ولا يزال يسهل عليه أمر الصغائر حتى يستهين بها . فيكون صاحب الكبيرة الخائف منها أحسن حالا منه .

فإن أعجزه العبد من هذه المرتبة نقله إلى المرتبة الخامسة : وهى اشغاله بالمباحات التى لا ثواب فيها ولا عقاب ، بل عاقبتها فوت الثواب الذى ضاع عليه باشتغاله بها .

فإن أعجزه العبد من هذه المرتبة ، وكان حافظا لوقته ، شحيحا به ، يعلم مقدار أنفاسه وانقطاعها ، وما يقابلها من النعيم والعذاب : نقله إلى المرتبة السادسة وهى : أن يشغله بالعمل المفضول عما هو أفضل منه ، ليزيح عنه الفضيلة ، ويفوته ثواب العمل الفاضل ، فيأمره بفعل الخير المفضول ، ويحضه عليه ، ويحسنه له إذا تضمن ترك ما هو أفضل وأعلى منه . وقلَّ من يتنبه لهذا من الناس . فإنه إذا رأي فيه داعيا قويا ومحركا إلى نوع من الطاعة لا يشك أنه طاعة وقربة . فإنه لايكاد يقول : إن هذا الداعى من الشيطان ، فإن الشيطان لا يأمر بخير ، ويرى أن هذا خير ، فيقول : هذا الداعى من الله . وهو معذور . ولم يصل علمه إلى أن الشيطان يأمر بسبعين باباً من أبواب الخير ، إما ليتوصل بها إلى باب واحد من الشر ، وإما ليفوِّت بها خيرا أعظم من تلك السبعين باباً وأجل وأفضل .

وهذا لا يتوصل إلى معرفته إلا بنور من الله يقذفه فى قلب العبد ، يكون

سببه تجريد متابعة الرسول صلى الله عليه وسلم ، وشدة عنايته بمراتب الأعمال عند الله ، وأحبها إليه ، وأرضاها له ، وأنفعها للعبد ، وأعمها نصيحة لله ولرسوله ، ولكتابه ، ولعباده المؤمنين ، خاصتهم وعامتهم ، ولا يعرف هذا إلا من كان من ورثة الرسول صلى الله عليه وسلم ونوابه فى الأمة ، وخلفائه فى الأرض . وأكثر الخلق محجوبون عن ذلك . فلا يخطر ذلك بقلوبهم . والله يَمُنُّ بفضله على من يشاء من عباده .

فإذا أعجزه العبد من هذه المراتب الست وأعيَ عليه : سلط عليه حزبه من الإنس والجن بأنواع الأذى والتكفير والتضليل والتبديع ، والتحذير منه ، وقصد إخماله وإطفاءه ليشوش عليه قلبه . ويشغل بحربه فكره ، وليمنع الناس من الانتفاع به . فيبقى سعيه فى تسليط المبطلين من شياطين الإنس والجن عليه ، لا يفتر ولا يَنِي . فحينئذ يلبس المؤمن لأمَةَ الحرب ، ولا يَضعُها عنه إلى الموت ، ومتى وضعها أُسِر أو أصيب ، فلا يزال فى جهاد حتى يلقى الله .

فتأمل هذا الفصل . وتدبر موقعه ، وعظيم منفعته ، واجعله ميزانك تَزِن به الناس ، وتزن به الأعمال . فانه يُطلعك على حقائق الوجود ومراتب الخلق . والله المستعان ، وعليه التكلان .

ولو لم يكن فى هذا التعليق إلا هذا الفصل لكان نافعا لمن تدبره ووعاه .

فصل

وتأمل السر فى قوله تعالى (يوسوس فى صدور الناس) ولم يقل : فى قلوبهم والصدر : هو ساحة القلب وبيته . فمنه تدخل الواردات إليه ، فتجتمع فى الصدر ثم تلج فى القلب . فهو بمنزلة الدهليز له . ومن القلب تخرج الأوامر والارادات إلى الصدر ، ثم تتفرق على الجنود . ومن فهم هذا فهم قوله تعالى (٣ : ١٥٤ وليبتلى الله ما فى صدوركم وليمحص ما فى قلوبكم) .

فالشيطان يدخل إلى ساحة القلب و بيته ، فيلقى مايريد إلقاءه إلى القلب ، فهو موسوس فى الصدر . ووسوستهواصلة إلى القلب . ولهذا قال تعالى (٢٠:١٢٠ فوسوس إليه الشيطان) ولم يقل « فيه » لأن المعنى أنه ألقى إليه ذلك ، وأوصله إليه . فدخل فى قلبه .

فصل

وقوله تعالى (من الجنة والناس) اختلف المفسرون فى هذا الجار والمجرور : بم يتعلق ؟

فقال الفراء وجماعة : هو بيان للناس الموسوَس فى صدورهم . والمعنى : يوسوس فى صدور الناس الذين هم من الجن والإنس ، أى الموسوس فى صدورهم قسمان : إنس وجن . فالوسواس يوسوس للجني ، كما يوسوس للانسى .

وعلى هذا القول : فيكون « من الجنة والناس » نصب على الحال . لأنه مجرور بعد معرفة، على قول البصريين. وعلى قول الكوفيين : نصب بالخروج من المعرفة . هذه عبارتهم . ومعناها : أنه لما لم يصلح أن يكون نعتا للمعرفة انقطع عنها . فكان موضعه نصبا .

والبصريون يقدرونه حالا . أى كائنين من الجنة والناس . وهذا القول ضعيف جداً ، لوجوه :

أحدها : أنه لم يقم دليل على أن الجنى يوسوس فى صدر الجنى . و يدخل فيه ، كما يدخل فى الإنسى ، ويجرى منه مجراه من الإنسى . فأى دليل يدل على هذا ، حتى يصح حمل الآية عليه ؟

الثانى : أنه فاسد من جهة اللفظ أيضا . فإنه قال « الذى يوسوس فى صدور الناس » فكيف يبين الناس بالناس . فإن معنى الكلام على قوله : يوسوس فى صدور الناس الذين هم ، أو كائنين، من الجنة والناس . أفيجوز أن يقال : فى صدور

الناس الذين هم من الناس وغيرهم ؟ هذا مالا يجوز، ولا هو فى الاستعمال فصيح .

الثالث : أن يكون قد قسم الناس إلى قسمين : جنة ، وناس . وهذا غير صحيح . فإن الشيء لايكون قسيم نفسه .

الرابع : أن « الجنة » لايطلق عليهم اسم الناس بوجه ، لا أصلا ولا اشتقاقا ولا استعمالا . ولفظهما يأبى ذلك . فإن الجن إنما سمو جِنًّا من الاجتنان ، وهو الاستتار . فهم مستترون عن أعين البشر . فسمو جِنًّا لذلك ،من قولهم جَنَّه الليل وأَجَنَّه : إذا ستره . وأجن الميت : إذا ستره فى الأرض . قال :

ولا تبك ميتا بعد ميت أجنه * على وعباس وآل أبى بكر

يريد النبى صلى الله عليه وسلم . ومنه الجنين لاستتاره فى بطن أمه . قال تعالى (٥٣ : ٣٢ و إذ أنتم أجنة فى بطون أمهاتكم) ومنه المجن : لاستتار المحارب به من سلاح خصمه . ومنه الجنة : لاستتار داخلها بالأشجار . ومنه الجنة ــ بالضم لما يقى الإنسان من السهام والسلاح . ومنه المجنون : لاستتار عقله .

وأما الناس : فبينه و بين الإنس مناسبة فى اللفظ والمعنى ، و بينهما اشتقاق أوسط . وهو عقد [1] تقاليب الكلمة على معنى واحد .

والإنس والانسان : مشتق من الإيناس ، وهو الرؤية والاحساس . ومنه قوله (٢٨ : ٢٩آنس من جانب الطور نارا) أى رآها ومنه (٤ : ٦ فإن آنستم منهم رشداً) أى أحسستموه ورأيتموه .

فالانسان سمى إنساناً لأنه يونس ، أى بالعين يرَى . والناس فيه قولان .

أحدها : أنه مقلوب من أنس ، وهو بعيد . والأصل عدم القلب .

والثانى : وهو الصحيح ، أنه من النوس، وهو الحركة المتتابعة . فسمى الناس ناساً للحركة الظاهرة والباطنة ، كما سمى الرجل حارث وهمام ، وهما أصدق الأسماء

---

(١) معناه رجوع تقاليب الكلمة اى تصرفها إلى معنى واحد .

كما قال النبي صلى الله عليه وسلم « أصدق الاسماء : حارث وهمام » لأن كل أحد له هم و إرادة ، هى مبدأ ، وحرث وعمل ، هو منتهى . فكل أحد حارث وهمام . والحرث والهم : حركتا الظاهر والباطن . وهو حقيقة النَّوْس .

وأصل . ناس : نوس ، تحركت الواو ، وقبلها : فتحة . فصارت ألفاً . هذان هما القولان المشهوران فى اشتقاق « الناس » .

وأما قول بعضهم : إنه من النسيان ، وسمى الإنسان إنسانا لنسيانه . وكذلك الناس سموا ناسا لنسيانهم : فليس هذا القول بشىء . وأين النسيان ، الذى مادته ن س ى إلى الناس الذى مادته ن و س ؟ وكذلك أين هو من الأنس الذى مادته أ ن س ؟ .

وأما إنسان فهو فعلان من أ ن س . والألف والنون فى آخره زائدتان ، لا يجوز فيه غير هذا ألبتة . إذ ليس فى كلامهم : أنسن ، حتى يكون إنسانا إفعالا منه . ولا يجوز أن يكون الألف والنون فى أوله زائدتين ، إذ ليس فى كلامهم : انفعل . فيتعين أنه فعلان من الأنس .

ولو كان مشتقا من نسى لكان نسيانا لا إنسانا .

فإن قلت : فهلا جعلته إفعلا لا . وأصله إنسيان ، كليلة إضحيان ، ثم حذفت الياء تخفيفا فصار إنساناً ؟

قلت : يأبي ذلك عدم إفعلال فى كلامهم ، وحذف الياء بغير سبب ، ودعوى مالا نظير له . وذلك كله فاسد ، على أن « الناس » قد قيل : إن أصله الأناس . فحذفت الهمزة . فقيل : الناس . واستدل بقول الشاعر :

* إن المنايا يطلعن على الأناس الغافلينا *

ولا ريب أن أناسا فعال . ولا يجوز فيه غير ذلك البتة . فإن كان أصل ناس أناسا ، فهو أقوى الأدلة على أنه من أنس ، و يكون الناس كالإنسان سواء فى الاشتقاق .

ويكون وزن ناس ـ على هذا القول ـ : عال . لأن المحذوف فاؤه .

وعلى القول الأول : يكون وزنه : فعل . لأنه من النوس .

وعلى القول الضعيف : يكون وزنه : فلع . لأنه من نسى . فنقلت لامه إلى موضع العين ، فصار ناسا وزنه فلعاً .

والمقصود : أن «الناس» اسم لبنى آدم . فلا يدخل الجن فى مسماهم فلا يصح أن يكون « من الجنة والناس » بيانا لقوله (فى صدور الناس) وهذا واضح لاخفاء فيه .

فإن قيل : لا محذور فى ذلك . فقد أطلق على الجن اسم الرجال . كما فى قوله تعالى (٧٢ : ٦ وأنه كان رجال من الإنس يعوذون برجال من الجن) فإذا أطلق عليهم اسم الرجال لم يمتنع أن يطلق عليهم اسم : الناس ؟ .

قلت: هذا هو الذى غرّ من قال : إن الناس اسم للجن والإنس فى هذه الآية

وجواب ذلك : أن اسم الرجال إنما وقع عليهم وقوعا مقيداً فى مقابلة ذكر الرجال من الإنس . ولا يلزم من هذا أن يقع اسم الناس والرجال عليهم مطلقا .

وأنت إذا قلت : إنسان من حجارة ، أو رجل من خشب ، ونحو ذلك : لم يلزم من ذلك : وقوع اسم الرجل والإنسان عند الإطلاق على الحجر والخشب.

وأيضا فلا يلزم من إطلاق اسم الرجل على الجنى أن يطلق عليه اسم الناس . وذلك لأن الناس والجنة متقابلان ، وكذلك الإنس والجن . فالله سبحانه يقابل بين اللفظين كقوله (٥٥ :٣٣ يامعشر الجن والإنس) وهو كثير فى القرآن . وكذلك قوله (من الجنة والناس) يقتضى أنهما متقابلان . فلا يدخل أحدهما فى الآخر ، بخلاف الرجال والجن . فإنهما لم يستعملا متقابلين . فلا يقال : الجن والرجال ، كما يقال : الجن والإنس .

وحينئذ فالآية أبين حجة عليهم فى أن الجن لا يدخلون فى لفظ « الناس » لأنه قابل بين الجنة والناس . فعلم أن أحدهما لا يدخل فى الآخر .

فالصواب : القول الثانى . وهو أن قوله (من الجنة والناس) بيـان للذى يوسوس ، وأنهم نوعان إنس وجن . فالجنى يوسوس في صدور الإنس ، والإنسى أيضا يوسوس فى صدور الإنس .

فالموسوس نوعان : إنس وجن فإن الوسوسة هى الإلقاء الخفى فى القلب . وهذا مشترك بين الجن والإنس ، وإن كان إلقاء الإنسى وسوسته إنما هى بواسطة الأذن ، والجنى لايحتاج إلى تلك الواسطة . لأنه يدخل فى ابن آدم ، ويجرى منه مجرى الدم . على أن الجنى قد يتمثل له ، ويوسوس إليـه فى أذنه كالإنسى ، كما فى البخارى عن عروة عن عائشة عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال « إن الملائكة تحدث فى العنان — والعنان الغمام — بالأمر يكون فى الأرض ، فتستمع الشياطين الـكلمة ، فتقرها فى أذن الـكاهن ، كما تقر القارورة ، فيزيدون معها مائة كذبة من عند أنفسهم »

فهذه وسوسة و إلقاء من الشيطان بواسطة الأذن .

ونظير اشتراكهما فى هذه الوسوسة : اشتراكهما فى الوحى الشيطانى . قال تعالى (٦ :١١٢ وكذلك جعلنا لـكل نبى عدوا شياطين الإنس والجن ، يوحى بعضهم إلى بعض زخرف القول غروراً)

فالشيطان يوحى إلى الإنسى باطله ، و يوحيه الإنسى إلى إنسى مثله . فشياطين الإنس والجن يشتركان فى الوحى الشيطاني . ويشتركان فى الوسوسة .

وعلى هذا : تزول تلك الاشكالات والتعسفات التى ارتكبها أصحاب القول الأول . وتدل الآية على الاستعاذة من شر نوعى الشياطين : شياطين الانس ، وشياطين الجن .

وعلى القول الأول : إنمـا تكون استعاذة من شر شياطين الجن فقط . فتأمله فإنه بديع جدا .

فهذا مامن الله به من الكلام على بعض أسرار هاتين السورتين . وله الحمد والمنة . وعسى الله أن يساعد بتفسير على هذا النمط . فما ذلك على الله بعزيز . والحمد لله رب العالمين .ونختم الكلام على السورتين بذكر :

قاعدة نافعة

﴿ فيما يعتصم به العبد من الشيطان ، ويستدفع به شره ، ويحترز به منه ﴾

وذلك عشرة أسباب .

أحدها : الاستعاذة بالله من الشيطان . قال تعالى (٤١:٣٦و إما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله إنه هو السميع العليم) وفى موضع آخر (٧ : ٢٠٠ إنه سميع عليم) وقد تقدم : أن السمع المراد به ههنا سمع الإجابة لا مجرد السمع العام .

وتأمل سر القرآن كيف أكد الوصف بالسميع العليم بذكر صيغة « هو » الدال على تأكيد النسبة واختصاصها ، وعرف الوصف بالألف واللام فى سورة حمٓ لاقتضاء المقام لهذا التأكيد ، وتركه فى سورة الأعراف، لاستغناء المقام عنه . فإن الأمر بالاستعاذة فى سورة حمٓ وقع بعد الأمر بأشق الأشياء على النفس . وهو مقابلة إساءة المسىء بالإحسان إليه . وهذا أمر لا يقدر عليه إلا الصابرون ، ولا يلقاه إلا ذو حظ عظيم . كما قال الله تعالى .

والشيطان لا يدع العبد يفعل هذا . بل يريه أن هذا ذُلٌّ وعجز ، ويسلط عليه عدوه ، فيدعوه إلى الانتقام ، ويزينه له . فإن عجز عنه دعاه إلى الإعراض عنه ، وأن لا يسىء إليه ولا يحسن ، فلا يؤثر الاحسان إلى المسىء إلا من خالفه وآثرَ الله وما عنده على حظه العاجل . فكان المقام مقام تأكيد وتحريض . فقال فيه (وإما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله . إنه هو السميع العليم)

وأما فى سورة الأعراف : فإنه أمره أن يعرض عن الجاهلين . وليس فيها الأمر بمقابلة إساءتهم بالإحسان ، بل بالإعراض . وهذا سهل على النفوس ، غير

مستعصى عليها . فليس حرص الشيطان وسعيه فى دفع هذا كحرصه على دفع المقابلة بالاحسان ، فقال (وإما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله . إنه سميع عليم)

وقد تقدم ذكر الفرق بين هذين الموضعين . وبين قوله فى حم المؤمن (٤٠ : ٥٦ فاستعذ بالله إنه هو السميع البصير) .

وفى صحيح البخارى عن عدى بن ثابت عن سليمان بن صرد قال « كنت جالساً مع النبى صلى الله عليه وسلم ورجلان يَسْتَبَّان . فأحدهما احمرَّ وجهه ، وانتفخت أوداجه . فقال النبى صلى الله عليه وسلم : إنى لأعلم كلمة لو قالها ذهب عنه ما يجد . لو قال : أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ذهب عنه ما يجد »

الحرز الثانى : قراءة هاتين السورتين . فإن لهما تأثيراً عجيباً فى الاستعاذة بالله من شره ودفعه والتحصن منه . ولهذا قال النبى صلى الله عليه وسلم « ما تعوذ المتعوذون بمثلهما » وقد تقدم أنه كان يتعوذ بهما كل ليلة عند النوم ، وأمر عقبة أن يقرأ بهما دبر كل صلاة .

وتقدم قوله صلى الله عليه وسلم « إن من قرأهما مع سورة الاخلاص ثلاثاً حين يمسى ، وثلاثاً حين يصبح، كفته من كل شىء »

الحرز الثالث : قراءة آية الكرسى . فى الصحيح من حديث محمد بن سيرين عن أبى هريرة قال « وكلنى رسول الله صلى الله عليه وسلم بحفظ زكاة رمضان ، فأتى آت ، فجعل يحثو من الطعام . فأخذته فقلت : لأرفعنك إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم — فذكر الحديث ، إلى أن قال — فقال : إذا أويت إلى فراشك فاقرأ آية الكرسى ، فإنه لن يزال عليك من الله حافظ ، ولا يقربك شيطان حتى تصبح . فقال النبى صلى الله عليه وسلم : صدقك وهو كذوب ، ذاك الشيطان » .

وسنذكر إن شاء الله تعالى السر الذى لأجله كان لهذه الآية العظيمة هذا

التأثير العظيم فى التحرز من الشيطان ، واعتصام قارئها بهـا فى كلام مفرد عليها وعلى أسرارها وكنوزها بعون الله وتأييده .

الحرز الرابع : قراءة سورة البقرة : ففى الصحيح من حـديث سهل بن عبد الله عن أبى هريرة أن رسول الله صلى عليه وسلم قال « لا تجعلوا بيوتـكم قبوراً . وإن البيت الذى تقرأ فيه البقرة لا يدخله الشيطان »

الحرز الخامس : خاتمة سورة البقرة . فقد ثبت فى الصحيح من حـديث أبى مسعود الأنصارى قال « قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : من قرأ الآيتين من آخر سورة البقرة في ليلة كفتاه » .

وفى الترمذى عن النعمان بن بشير عن النبى صلى الله عليه وسلم قال « إن الله كتب كتابا قبل أن يخلق الخلق بألفى عام ، أنزل منه آيتين ختم بهما سورة البقرة ، فلا يقرآن فى دار ثلاث ليال فيقربها شيطان »

الحرز السادس : أول سورة حٰمٓ المؤمن إلى قوله (إليه المصـير) مع آية الـكرسى . ففى الترمذى من حديث عبد الرحمن بن أبى بكر عن ابن أبى مليكة عن زُرارة بن مصعب عن أبى سلمة عن أبى هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من قرأ حم المؤمن إلى (إليه المصير) وآية الـكرسى حين يصبح حفظ بهما حتى يمسى . ومن قرأهما حين يمسى حفظ بهما حتى يصبح » وعبد الرحمن المليكى ، وإن كان قد تُـكُلِّم فيه من قبل حفظه . فالحديث له شواهد فى قراءة آية الـكرسى وهو محتمل على غرابته .

الحرز السابع : « لا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شىء قدير » مائة مرة . ففى الصحيحين من حديث سُمَى مولى أبى بكر عن أبى صالح عن أبى هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « من قال لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك ، وله الحمد . وهو كل شىء قـدير فى يوم مائة مرة . كانت له عدل عشر رقاب . وكتبت له مائة حسنة . ومحيت عنه مائة

سيئة . وكانت له حرزاً من الشيطان يومه ذلك حتى يمسى . ولم يأت أحد بأفضل مما جاء به إلا رجل عمل أكثر من ذلك » فهذا حرز عظيم النفع جليل الفائدة يسير سهل على من يسره الله عليه .

الحرز الثامن : وهو من أنفع الحروز من الشيطان : كثرة ذكر الله عز وجل ففى الترمذى من حديث الحارث الأشعرى أن النبى صلى الله عليه وسلم قال « إن الله أمر يحيى بن زكريا بخمس كلمات : أن يعمل بها ، ويأمر بنى إسرائيل أن يعملوا بهـا ، وأنه كاد أن يبطىء بها . فقال عيسى : إن الله أمرك بخمس كلمات لتعمل بها ، وتأمر بنى إسرائيل أن يعملوا بها . فإما أن تأمرهم وإما أن آمرهم . فقال يحيى : أخشى إن سبقتنى بهـا أن يُخسف بى أو أعذب . فجمع الناس فى بيت المقدس فامتلأ ، وقعدوا على الشرف . فقال : إن الله أمرنى بخمس كلمات أن أعمل بهن وآمركم أن تعملوا بهن : أولهن أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً ، وأن مثل من أشرك بالله كمثل رجل اشترى عبداً من خالص ماله بذهب أو ورق فقال : هذه دارى ، وهذا عملى ، فاعمل وأدّ إلىّ . فكان يعمل ويؤدى إلى غير سيده . فأيكم يرضى أن يكون عبده كذلك ؟ وإن الله أمركم بالصلاة . فإذا صليتم فلا تلتفتوا . فإن الله ينصب وجهه لوجه عبده فى صلاته ما لم يلتفت . وأمركم بالصيام . فإن مثل ذلك كمثل رجل فى عصابة معه صُرة فيهـا مسك ، فكلهم يعجب أو يعجبه ريحها . وإن ريح الصائم أطيب عند الله من ريح المسك . وأمركم بالصدقة . فإن مثل ذلك كمثل رجل أسره العدو فأوثقوا يده إلى عنقه ، وقدموه ليضربوا عنقه . فقال : أنا أفديه منكم بالقليل والكثير ففدى نفسه منهم . وأمركم أن تذكروا الله . فإن مثل ذلك كمثل رجل خرج العدو فى أثره سراعاً ، حتى أتى على حصن حصين فأحرز نفسه منهم . كذلك العبد لا يحرز نفسه من الشيطان إلا بذكر الله ، قال النبي صلى الله عليه وسلم : وأنا آمركم بخمس الله أمرني بهن : السمع والطاعة . والجهاد . والهجرة . والجماعة . فإن من فارق

الجماعة قِيْد شبر، فقد خلع رِبْقة الإسلام من عنقه، إلا أن يراجع . ومن ادعى دعوى الجاهلية فإنه من جُثاء جهنم . فقال رجل : يا رسول الله، و إن صلى وصام؟ قال : و إن صلى وصام . فادعوا بدعوى الله الذى سماكم المسلمين المؤمنين عباد الله » قال الترمذى : هـذا حديث حسن غريب صحيح . وقال البخارى : الحارث الأشعرى له صحبة . وله غير هذا الحديث .

فقد أخبر النبى صلى الله عليه وسلم فى هذا الحديث أن العبد لا يحرز نفسه من الشيطان إلا بذكر الله . وهذا بعينه هو الذى دلت عليه سورة (قل أعوذ برب الناس) فإنه وصف الشيطان فيهـا بأنه الخناس . والخناس الذى إذا ذكر العبد الله انخنس، وتجمع وانقبض . و إذا غفل عن ذكر الله التقم القلب وألقى إليه الوساوس التى هى مبادىء الشر كله . فما أحرز العبد نفسه من الشيطان بمثل ذكر الله عز وجل .

الحرز التاسع : الوضوء والصلاة . وهذا من أعظم ما يتحرز به منه، ولا سيما عند توارد قوة الغضب والشهوة . فإنها نار تغلى فى قلب ابن آدم . كما فى الترمذى من حديث أبى سعيد الخدرى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال « ألا و إن الغضب جمرة فى قلب ابن آدم، أما رأيتم إلى حمرة عينيه وانتفاخ أوداجه ؟ فمن أحسَّ بشىء من ذلك فليلصق بالأرض »

وفى أثر آخر « إن الشيطان خلق من نار، و إنما تطفأ النار بالماء » فما أطفأ العبد جمرة الغضب والشهوة بمثل الوضوء والصلاة . فإنها نار والوضوء يطفئها، والصلاة إذا وقعت بخشوعها والاقبال فيها على الله أذهبت أثر ذلك كله . وهذا أمر تجربته تغنى عن إقامة الدليل عليه .

الحرز العاشر : إمساك فضول النظر والـكلام والطعام، ومخالطة الناس . فإن الشيطان إنما يتسلط على ابن آدم، و ينال منه غرضه : من هذه الأبواب الأربعة

فإن فضول النظر يدعو إلى الاستحسان ، ووقوع صورة المنظور إليه فى القلب ، والاشتغال به ، والفكرة فى الظفر به .

فمبدأ الفتنة من فضول النظر ، كما فى المسند عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال « النظرة سهم مسموم من سهام إبليس ، فمن غَضَّ بصره لله أورثه الله حلاوة يجدها فى قلبه إلى يوم يلقاه » أو كما قال صلى الله عليه وسلم .

فالحوادث العظام إنما هى كلها من فضول النظر . فكم نظرة أعقبت حسرات لا حسرة ؟ كما قال الشاعر :

كل الحوادث مبداها من النظر ومعظم النار من مستصغر الشرر
كم نظرة فتكت فى قلب صاحبها فتك السهام بلا قوس ولا وتر ؟

وقال الآخر :

وكنت متى أرسلت طرفك رائداً لقلبك يوما أتعبتك المناظر
رأيت الذى لا كُلَّه أنت قادر عليه ، ولا عن بعضه أنت صابر

وقال المتنبى :

وأنا الذى جلب المنيـة طرفه فمن المطالب ، والقتيل القاتل ؟

ولى من أبيات :

يارامياً بسـهام اللحظ مجتهداً أنت القتيل بما ترمى ، فلا تصب
وباعثَ الطرف يرتاد الشفاء له توَقَّه ، إنه يرتد بالعطب
ترجو الشفاء بأحداق بها مرض فهل سمعت ببرء جاء من عطب ؟
ومفنياً نفسـه فى إثر أقبحهم وصفاً للطخ جمال فيه مستلب
وواهباً عمره فى مثل ذا سـفها لو كنت تعرف قدرالعمر لم تهب
وبائعاً طيب عيش ماله خطر بطيف عيش من الآلام منتهب
غبنت والله غبناً فاحشاً فلو اسـ ترجعت ذا العقد لم تغبن ولم تخب
وواردا صـفو عيش كله كدر أمامك الورد صفواً ليس بالـكذب

وحاطب الليل فى الظلماء منتصباً ... لكل داهية تدنى من العطب
شاب الصبا والتصابى بعد لم يشب ... وضاع وقتك بين اللهو واللعب
وشمس عمرك قد حان الغروب لها ... والضى فى الأفق الشرقى لم يغب
وفاز بالوصل من قد فاز وانقشعت ... عن أفقه ظلمات الليل والسحب
كم ذا التخلف والدنيا قد ارتحلت ... ورسل ربك قد وافتك فى الطلب
مافى الديار وقد سارت ركائب من ... تهواه للصب من سكنى ولا أرب
فأفرش الخد ذياك التراب ، وقل ... ماقاله صاحب الأشواق فى الحقب
ماربع مية محفوفاً يطوف به ... غيلان أشهى له من ربعك الخرب
ولا الخدود وإن أدمين من ضرج [(١)] ... أشهى إلى ناظرى من خدك الترب
منازلا كان يهواها ويألفها ... أيام كان منال الوصل عن كثب
فكلما جليت تلك الربوع له ... يهوى إليها هوى الماء فى صبب
أحيا له الشوق تذكار العهود بها ... فلو دعا القلب للسلوان لم يجب
هذا وكم منزل فى الأرض يألفه ... وما له فى سواها الدهر من رغب
مافى الخيام أخو وجد يريحك إن ... بثثته بعض شأن الحب ، فاغترب
وأسر فى غمرات الليل مهتدياً ... بنفحة الطيب لا بالنار والحطب
وعاد كل أخى جبن ومعجزة ... وحارب النفس لا تلقيك [(٢)] فى الحرب
وخذ لنفسك نوراً تستضىء به ... يوم اقتسام الورى الأنوار بالرتب
فالجسر ذو ظلمات ليس يقطعه ... إلا بنور ينجى العبد فى الكرب

والمقصود : أن فضول النظر أصل البلاء .

وأما فضول الكلام فإنها تفتح للعبد أبوابا من الشر كلها مداخل للشيطان ،

---

(١) فى القاموس: تضرج الخد :احمار. فالضرج الاحمرار .

(٢) فى النهاية الحرب بالتحريك نهب مال الانسان وتركه لا شيء له والمعنى : حارب النفس لئلا تسلب الفضيلة أو رأس مالك وهو العمر .

فإمساك فضول الكلام يسد عنه تلك الأبواب كلها . وكم من حرب جرتها كلمة واحدة . وقد قال النبى صلى الله عليه وسلم لمعاذ « وهل يُكِبُّ الناس على مناخرهم فى النار إلا حصائد ألسنتهم » وفى الترمذى « أن رجلا من الأنصار تُوفِّى فقال بعض الصحابة : طوبى له .فقال النبى صلى الله عليه وسلم : فما يدريك ؟ فلعله تكلم بما لا يعنيه ، أو بخل بما لا ينقصه » .

وأكثر المعاصى : إنما يولدها فضول الكلام والنظر . وهما أوسع مداخل الشيطان . فإن جارحتيهما لا يملان ، ولا يسأمان ، بخلاف شهوة الباطن . فإنه إذا امتلأ لم يبق فيه إرادة للطعام .

وأما العين واللسان فلو تركا لم يفترا من النظر والكلام ، فجنايتهما متسعة الأطراف ، كثيرة الشعب ، عظيمة الآفات .

وكان السلف يحذرون من فضول النظر ، كما يحذرون من فضول الكلام ، كانوا يقولون : ماشىء أحوج إلى طول السجن من اللسان .

وأما فضول الطعام: فهو داع إلى أنواع كثيرة من الشر ، فإنه يحرك الجوارح إلى المعاصى ، ويثقلها عن الطاعات . وحسبك بهذين شراً . فكم من معصية جلبها الشبع وفضول الطعام ؟ وكم من طاعة حال دونها ؟

فمن وقى شر بطنه فقد وقى شرًّا عظيما .

والشيطان أعظم مايتحكم من الإنسان إذا ملأ بطنه من الطعام . ولهذا جاء فى بعض الآثار « ضيقوا مجارى الشيطان بالصوم » وقال النبى صلى الله عليه وسلم « ماملأ آدمى وعاء شراً من بطن » .

ولو لم يكن فى الامتلاء من الطعام إلا أنه يدعو إلى الغفلة عن ذكر الله عز وجل ، وإذا غفل القلب عن الذكر ساعة واحدة جثم عليه الشيطان ووعده ، وَمَنَّاه وشهَّاه ، وهام به فى كل واد . فإن النفس إذا شبعت تحركت وجالت ،

وطافت على أبواب الشهوات ، و إذا جاعت سكنت وخشعت وذلت [(١)] .

وأما فضول المخالطة : فهى الداء العضال الجالب لـكل شر . وكم سلبت المخالطة والمعاشرة من نعمة . وكم زرعت من عداوة . وكم غرست فى القلب من حزازات تزول الجبال الراسيات ، وهى فى القلوب لا تزول ، ففى فضول المخالطة خسارة الدنيا والآخرة . و إنما ينبغى للعبد أن يأخذ من المخالطة بمقدار الحاجة .

ويجعل الناس فيها أر بعة أقسـام : متى خلط أحد الأقسام بالآخر ، ولم يميز بينهما دخل عليه الشر .

أحدها : من مخالطته كالغذاء لا يستغنى عنه فى اليوم والليلة . فإذا أخذ حاجته منه ترك الخلطة ثم إذا احتاج إليه خالطه هكذا علي الدوام . وهذا الضرب أعز من الـكبريت الأحمر ، وهم العلماء بالله وأمره ، ومكايد عدوه ، وأمراض القلوب وأدويتها الناصحون لله ولـكتابه ولرسوله ولخلقه . فهذا الضرب فى مخالطتهم الربح كل الربح

القسم الثانى : من مخالطته كالدواء ، يحتاج إليه عند المرض . فما دمت صحيحاً

---

(١) ليس كل جوع وكل شبع ، فلقد كان الرسول صلى الله عليه وسلم يأكل مايجد ، فإن لم يجد شيئاً قال « إنى صائم » وليست فائدة الصيام فى الجوع ؛ ففى الحديث «من لم يدع قول الزور والعمل به فليس لله حاجة فى أن يدع طعامه وشرابه» وإنما حكمة الصيام وثمرته : طول الإقامة مع الله فى تلك العبادة ، فتتربى النفس على الحزم وقوة العزيمة ، ويقوى العقل فينفذ سلطانه على الحيوانية ، ولم يتعبدنا الله بالجوع ولا بالظمأ ، فإن خزائنه ملأى ، ويده سحاء الليل والنهار لا يغيضها عطاء ، وإنمـا اتخذ الصوفية الجوع وأشباهه عبادات ، على مثال الذين قال الله فيهم (ورهبانيـة ابتدعوها ، ما كتبناها عليهم) وهم لذلك لايقدرون أن يرعوها حق رعايتها ، بل تلزمهم سنة الله التى لاتتبدل على عدم الوفاء بما ألزموا أنفسهم ، أو أصيبوا بأنواع من الهوس والهستريا سموها جذباً ، وتـكلم الشيطان فيها على ألسنتهم ، بما تقشعر منـه الجلود .

فلا حاجة لك فى خلطته ، وهم من لا يستغنى عن مخالطتهم فى مصلحة المعاش ، وقيام ماأنت محتاج إليه من أنواع المعاملات والمشاركات والاستشارة والعلاج للأدواء ونحوها فإذا قضيت حاجتك من مخالطة هذا الضرب بقيت مخالطتهم من

القسم الثالث : وهم من مخالطته كالداء على اختلاف مراتبه وأنواعه وقوته وضعفه .

فمنهم من مخالطته كالداء العضال ، والمرض المزمن ، وهو من لا تربح عليه فى دين ولا دنيا . ومع ذلك فلا بد من أن تخسر عليه الدين والدنيا أو أحدهما . فهذا إذا تمكنت منك مخالطته واتصلت ، فهى مرض الموت المخوف .

ومنهم من مخالطته كوجع الضرس يشتد ضربه عليك ، فإذا فارقك سكن الألم .

ومنهم من مخالطته حمى الروح . وهو الثقيل البغيض العقل ، الذى لا يحسن أن يتكلم فيفيدك ، ولا يحسن أن ينصت فيستفيد منك ، ولا يعرف نفسه فيضعها فى منزلتها ، بل إن تكلم فكلامه كالعصى تنزل على قلوب السامعين ، مع إعجابه بكلامه وفرحه به . فهو يُحدِث من فيه كلما تحدث ، ويظن أنه مسك يطيب به المجلس . وإن سكت فأثقل من نصف الرحا العظيمة التى لا يطاق حملها ولا جرها على الأرض. ويذكر عن الشافعى رحمه الله أنه قال : ماجلس إلى جانبى ثقيل إلا وجدت الجانب الذى هو فيه أنزل من الجانب الآخر .

ورأيت يوماً عند شيخنا قدس الله روحه رجلا من هذا الضرب والشيخ يحمله ، وقد ضعفت القوى عن حمله ، فالتفت إلىّ وقال : مجالسة الثقيل حمى الربع . ثم قال : لكن قد أدمنت أرواحنا على الحمى ، فصارت لها عادة . أو كما قال .

وبالجملة: فمخالطة كل مخالف حمى للروح، فعرضية ولازمة . ومن نكد الدنيا

على العبد أن يبتلى بواحد من هـذا الضرب . وليس له بد من معاشرته ومخالطته فليعاشره بالمعروف ، حتى يجعل الله له من أمره فرجاً ومخرجا .

القسم الرابع : من مخالطته الهلاك كله ومخالطته بمنزلة أكل السم . فإن اتفق لآكله ترياق ، وإلا فأحسن الله فيه العزاء . وما أكثر هذا الضرب فى الناس لا كثرهم الله . وهم أهل البدع والضلالة ، الصادون عن سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، الداعون إلى خلافها ، الذين يصدون عن سبيل الله ويبغونها عوجا ، فيجعلون البدعة سنة ، والسنة بدعة ، والمعروف منكراً ، والمنكر معروفاً .

إن جردت التوحيد بينهم قالوا : تنقصت جناب الأولياء والصالحين .

و إن جردت المتابعة لرسول الله صلى الله عليه وسلم قالوا : أهدرت الأئمة المتبوعين .

و إن وصفت الله بما وصف به نفسه ، و بما وصفه به رسوله من غير غلوّ ولا تقصير قالوا : أنت من المشبهين

و إن أمرت بما أمر الله به ورسوله من المعروف ونهيت عما نهى الله عنه ورسوله من المنكر ، قالوا : أنت من المفتنين .

و إن اتبعت السنة وتركت ما خالفها قالوا : أنت من أهل البدع المضلين .

و إن انقطعت إلى الله تعالى ، وخليت بينهم و بين جيفة الدنيا ، قالوا : أنت من الملبسين .

و إن تركت ما أنت عليه واتبعت أهواءهم ، فأنت عند الله من الخاسرين ، وعندهم من المنافقين .

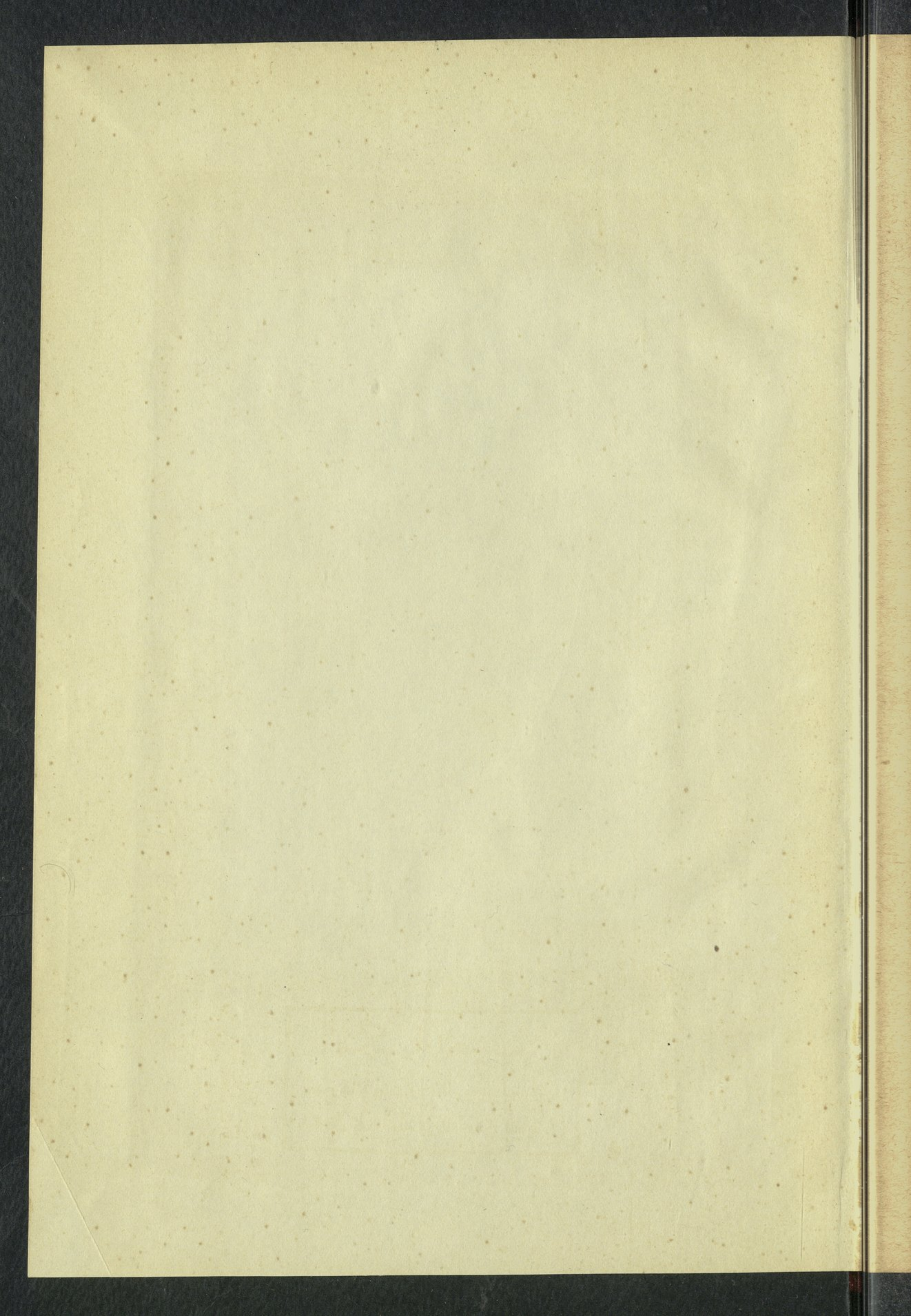
فالحزم كل الحزم: التماس مرضاة الله تعالى ورسوله بإغضابهم ، وأن لا تشتغل بأعتابهم ، ولا باستعتابهم ، ولا تبالى بذمهم ولا بغضهم . فإنه عين كمالك كما قال :

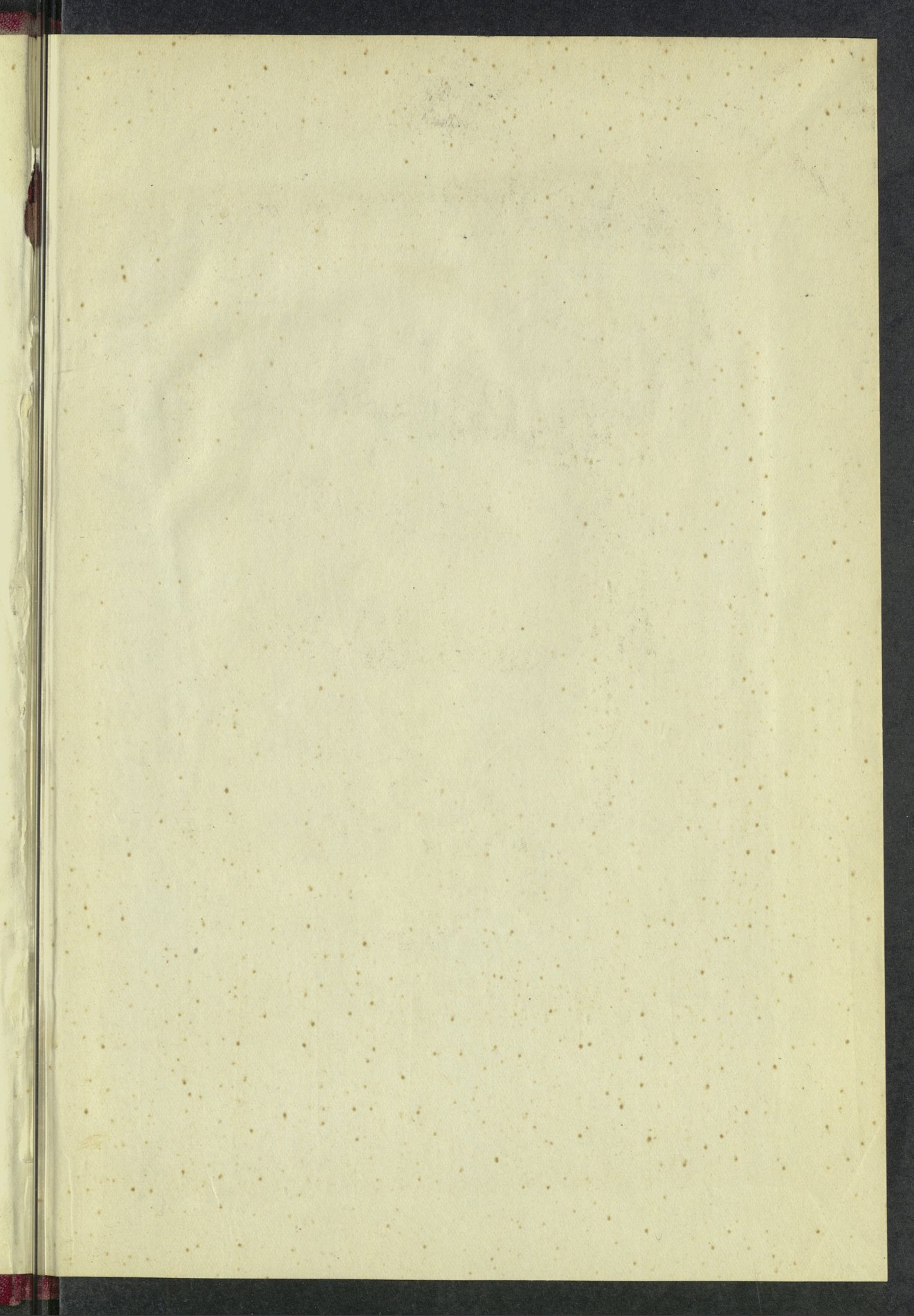
و إذا أتتك مذمتى من ناقص فهى الشهادة لى بأنى فاضل

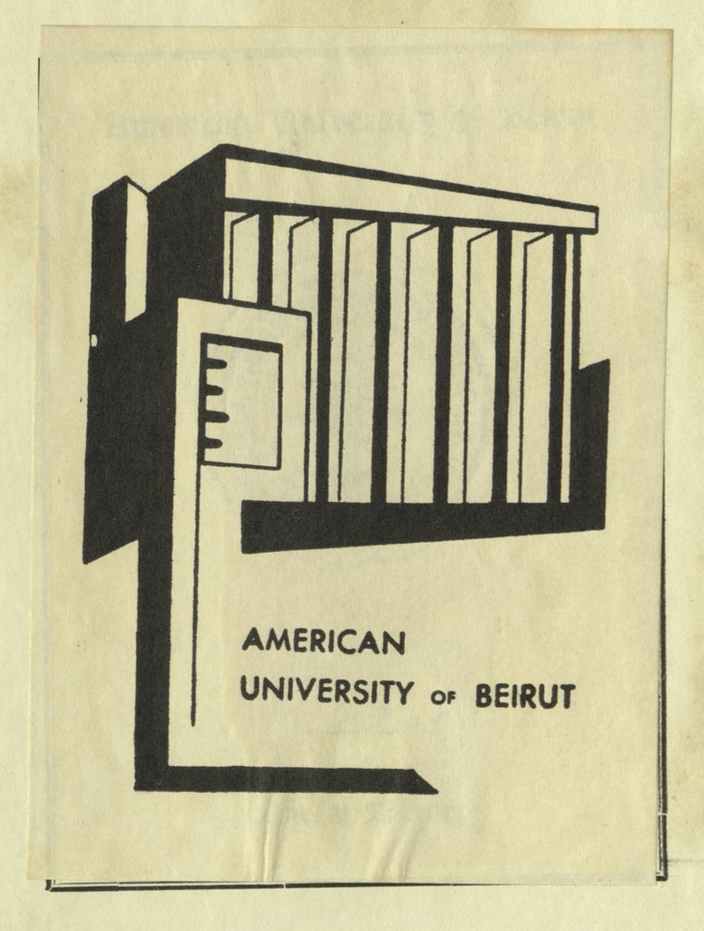
وقال آخر :

وقد زادنى حبـــاً لنفسى أننى بغيض إلى كل امرىء غير طـائل

فمن أيقظ بواب قلبه وحارسه من هـذه المداخل الأربعة التى هى أصل بلاء العالم ، وهى فضول النظر ، والـكلام ، والطعام ، والمخالطة . واستعمل ماذكرناه من الأسباب التسعة التى تحرزه من الشيطان . فقد أخذ بنصيبه من التوفيق . وسد على نفسه أبواب جهنم ، وفتح عليها أبواب الرحمة ، وانغمر ظاهره وباطنه . ويوشك أن يحمد عند الممات عاقبة هذا الدواء . فعند الممات يحمد القوم التقى . وفى الصباح يحمد القوم السُّرى . والله الموفق لا رب غيره ، ولا إله سواه






AMERICAN
UNIVERSITY OF BEIRUT